مَعَالِمُ إرْشَادِيَّةٌ

لِصِنَاعَةِ طَالِبِ العِلْمِ

الطَّبْعَةُ الأُولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

جدة - هاتف رئيسي 6326666 - فاكس 6320392

الإدارة 6300655 - المكتبة 6322471

ص. ب 22943 - جدة 21416

الموزعون المعتمدون

- السعودية : مكتبة الشنقيطي - جدة - هاتف : ٦٨٩٣٦٣٨
  مكتبة الزمان - المدينة المنورة - هاتف : ٨٣٦٦٦٦٦
  دار التدمرية - الرياض - هاتف : ٤٩٢٤٧٠٦
  مكتبة العبيكان - الرياض - هاتف : ٤٦٥٠٠٧١-٤٦٥٤٤٢٤
  مكتبة المتنبي - الدمام - هاتف : ٨٤١٣٠٠٠
- الإمارات العربية المتحدة : مكتبة دبي للتوزيع - دبي
  هاتف : ٢٢١١٩٤٩-٢٢٢٤٠٠٥ - فاكس : ٢٢٢٥١٣٧
  دار الفقيه - أبو ظبي - هاتف ٦٦٧٨٩٢٠ - فاكس ٦٦٧٨٩٢١
- الكويت : دار البيان - الكويت - هاتف : ٢٦١٦٤٩٠
- مملكة البحرين : مكتبة الفاروق - المنامة - هاتف : ١٧٢٧٢٢٠٤
- مصر : دار السلام - القاهرة - هاتف : ٢٧٤١٥٧٨
- سوريا : دار السنابل - دمشق - هاتف : ٢٢٤٢٧٥٣
- جمهورية اليمن : مكتبة تريم الحديثة - تريم - هاتف : ٤١٧١٣٠
- أندونيسيا : دار العلوم الإسلامية - سورابايا - هاتف : ٦٠٣٠٤٦٦٠
- تركيا : مكتبة الإرشاد - اسطنبول - هاتف : ٠٢١٢ ٦٣٨١٦٣٣
- لبنان : الدار العربية للعلوم - بيروت - هاتف : ٧٨٥١٠٨

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com

دار اليسر للنشر

المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية

الموقع الإلكتروني: www.dar-alyusr.com - للمراسلة على البريد الإلكتروني: info@dar-alyusr.com

قامت بطباعته وإخراجه دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان ص.ب: ٥٠١٣ - ١٤ - فاكس: ٠٠٩٦١١/٦٥٩٠٧٣

مَعَالِمُ إِرْشَادِيَّة

لِصِنَاعَةِ طَالِبِ العِلْمِ

بقلم

محمّد عوّامة

دار اليسر

دار المنهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الفتاح العليم، والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله أجمعين، وأفضلُها وأعظمُها على أفضلهم وأعظمهم سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله، المبعوث رحمة للعالمين، ومن مظاهر رحمته للعالمين: أنه صلى الله عليه وسلم بُعث معلِّماً ميسِّراً[1]، صلوات الله وسلاماته عليه، وعلى آله وأصحابه، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن العلم ـ من حيث هو ـ أشرف مطلوب، وكلُّ علم يَشرُف بشرف المعلوم، والعلمُ الشرعي بوسائله وغاياته أشرفُ ما يُطلب ويُسعى إليه، لأن المؤمن العامل به يزداد إيماناً، وعملاً صالحاً، وخُلُقاً حسناً، وبالعلم يمكن أن تتحقَّق للعالَم كلّه السعاداتُ والكمالات بوجوهها كلِّها، في دينهم ودنياهم.

ولا بد للوصول إلى العلم بالشيء من طلبه، فالطلب له: وسيلة للظفر به، وهذه الوسيلة (الطلب) جزء أساسي منه، فلا يمكن الحصول على

(١) رواه مسلم ٢: ١١٠٤ (٢٩) من حديث طويل، عن جابر مرفوعاً، وفي آخره: «إن الله لم يبعثني معنِّتاً ولا متعنِّتاً، ولكن بعثني معلِّماً ميسِّراً». معنِّتاً: مشدِّداً. متعنِّتاً: طالباً زلَّتهم. وعلى هذا الهَدْي النبوي ينبغي أن يكون حال كلّ معلِّم.

الشيء إلا بالطلب، ولا بدّ للظفر به من تحقُّق وسائل السير في طريقه على هُدى وبصيرة، لنيل المآرب على الوجه الذي يرومه الطالب المجدّ.

والذي يحقِّق النجاح والظفر للطالب: أن يترسَّم خُطى الناجحين الظافرين في أمورهم الحسيّة أو المعنوية، ليصل كما وصلوا.

كما أنه حقٌّ على كل متقدِّم سابق، أن ينير الدرب لكل متأخر لاحق، فيُفيدَه من خِبراته، ويرشده في مسيرته، فلا تتكرر الأخطاء، ولا تتجدَّد العَثَرات، فـ «الدين النصيحة».

وكنت أشعر ـ يوماً بعد يوم ـ بالحاجة الماسَّة إلى هذا (الإرشاد)، في خاصة نفسي، وفي غيري من إخواني طلاب العلم، وما كنت أجد كتاباً بلسان العصر، يُسعف ويُروي الغُلّة، مع علمي بأن الكتابة في هذا الصدد تحتاج إلى كاتب وقلم تتوفَّر فيه مواهبُ ومواهبُ، منها: أن يكون صاحبهما جمع بين التعليم القديم العريق، والتعليم الجديد (الرقيق) «وبضدِّها تتميَّز الأشياء».

فلهذا كنت أكرِّر رجائي، من فضيلة سيدي العلامة البصير الأريب الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، أن يتحف طلاب العلم بكتابٍ فيه مقوِّماتُ النبوغ في العلم، كما أتحفهم بكتابيه: «صفحات من صبر العلماء»، و«قيمة الزمن عند العلماء»، ووافق أخيراً، لكن لم يكتب شيئاً، تغمده الله برحمته.

ولما كان: ما لا يدرك كلُّه لا يترك جُلُّه (بل: لا يترك قُلُّه)، كنت أنتهز الفرصة المناسبة لأكتب كلمات أو صفحات، خلال ما كتبتُه وأسميته بـ «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين»، كما كتبت أقلَّ منه في البحث

الذي كتبتُه قبله، وأسميته «أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء رضي الله عنهم».

ثم رأيت أن أكتب ما أصل إليه بـ «جُهد المُقِلّ»، وأستغفر الله من تجاوز الحدود، فـ (إن الله لا يحب المعتدين)، فكتبت هذا الذي يراه إخواني طلبة العلم، وأكثرت من النقل عن ذَيْنك الكتابين، راجياً من الله عز وجل النفعَ به، والتوفيق إلى ما قصدتُ إليه: أن يكون كالأخذ باليد إلى «صناعة طالب العلم»، ثم: دعوةً صالحة من قارئ كريم.

وجاء هذا البحث في أربعة أبواب رئيسية، تحت كل باب منها عدة فصول، أو معالم.

* * * * *

الباب الأول

بيان العلم المقصود هنا، وأهميته، وفضله

الفصل الأول

بيان العلم المقصود بهذا البحث

إن العلم المقصود فيما أكتبه: هو العلم الشرعي النافع.

وإن أول معلِّم للإنسان الذي خلقه الله من عَلَق: هو الله جل جلاله، علَّمه الله بالقلم، وعلَّمه ما لم يعلم.

ثم أقام سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم معلِّما للأميين - ثم لغيرهم -، فعلَّمهم الكتاب الكريم، والحكمة - وهي السنة المطهرة - كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ الجمعة: ٢.

وإنما كان تعليمُه صلى الله عليه وسلم أمتَه للكتاب والحكمة فقط: لأنهما الوحي الإلهي - الذي به تكون سعادة الأمم - وهما الغاية، وما سواهما فوسائل مؤدِّية إليهما.

ولما كان القوم معاصرين للتنزيل وأسبابه، لم يكونوا بحاجة إلى ما

يسمَّى بالفقه وأصوله، فهُم بفهمهم وفقههم للغة القرآن، ومعايشتهم لأحداث التشريع، في غُنية عن ذلك، مع أنهم كانوا يفزعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أيٍّ مشكلة.

وأما علم السيرة والسِّيَر ـ أي: أحكام المغازي ـ: فهم رجاله، وبهم قامت أحداثه.

وأيضا: لم يكونوا بحاجة إلى علوم اللغة العربية، فهم أهل اللسان والبلاغة.

كما لم يكونوا بحاجة إلى تلك العلوم العقلية كالمنطق وآداب البحث والمناظرة، ونحوها من العلوم التي اضطُرَّ إليها علماؤنا السابقون لظروف وملابسات زمنية.

وعلى هذا: لم تكن ثَمة حاجةٌ إلى غير علم الكتاب والسنة، وهذه كانت مهمةَ النبي صلى الله عليه وسلم التي ناطها الله تعالى به: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل: ٤٤، فما ثَمَّ إلا المنزَّل، وتبيينه.

و(عملية العلم) قائمة على هذه الأركان الأربعة: العلمُ بالكتاب والسنة، والمتعلمُ، والمعلِّم، وعمليةُ التعليم القائمةُ بينهما، وبين هذه الأركان ارتباطٌ جدٌّ وثيق، ولهذا كان لا بدّ من حصول تداخلٍ بعضَ الشيء في بعض المنارات والمعالم التي سأتحدث عنها، مع حرصي على التمييز بين ما يتوجب على الطالب نفسه من الاهتداء بهذه المنارات، والسير وراء هذه المعالم، وبين ما على أستاذه من تربيته له وتسليكه، في منارات ومعالم أخرىٰ، ليتم لنا ما نريده من تكوين (طالبِ علمٍ) في

بدايته، و(عالمٍ عاملٍ) في مستقبله، إن شاء الله تعالىٰ.

وجعلت المعالم الأولىٰ هي الباب الثاني، والمعالم الثانية هي الباب الثالث والرابع، مع اعتذاري عن بعض ما حصل من تداخل.

وشرف العلم: تابع ونابع من شرف المعلوم، والمعلوم هنا: كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا أعظمَ منهما.

والمتعلم: شرفه بشرف مطلوبه. وشرف المعلِّم بشرف ما يعلِّم.

والتعليم: يشرفُ بشرف ما يُنتج ويورِّث.

ولولا هذه الأركان الأربعة: لما بقي دين الإسلام إلى اليوم وإلى ما شاء الله.

فهل رأيتَ عاقلاً يتخلَّف عن الانتساب إلى هذه المكارم!.

روى البزار، والطبراني في «الصغير»[1] من حديث أبي بكرة بسند ضعيف: «أُغْدُ عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلِكَ». أي: مبغضاً. وأزيد على هذه الأربعة من خلال ما جدَّ للناس: أو خادماً لأهله، أو ناشراً لعلومه بالطباعة، أو بافتتاح المدارس، أو باذلاً للمال كافلاً لطلابه، وما إلى ذلك.

أركان هذا العلم:

تقدم أن العلم المرادَ به هنا: هو العلم بالأحكام الشرعية.

---

(١) البزار في «مسنده» (١٣٤)، و«المعجم الصغير» (٧٨٦).

وعمدته ركنان:

الركن الأول: استمداده من مصادره الأصيلة: الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، وإجماع العلماء، وما شابه الإجماعَ (ندرة المخالف)، والقياس الصحيح على واحد من المصادر الثلاثة المذكورة.

قال الإمام ابن عبد البر[1]: «قال الشافعي رحمه الله: ليس لأحد أن يقول في شيء حلالٌ ولا حرام إلا من جهة العلم، وجهةُ العلم: ما نُصَّ في الكتاب، أو في السنة، أو في الإجماع، فإنْ لم يوجد في ذلك: فالقياس على هذه الأصول ما كان في معناها».

ثم قال: «قال محمد بن الحسن ـ هو الشيباني صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالى ـ: العلم أربعة أوجه:

١ ـ ما كان في كتاب الله الناطق، وما أشبهه.

٢ ـ وما كان في سنة رسول الله المأثورة، وما أشبهها.

٣ ـ وما كان فيما أَجمع عليه الصحابة، وما أشبهه، وكذلك ما اختلفوا فيه لا يُخْرَج عن جميعه.

٤ ـ وما استحسنه عامة فقهاء المسلمين، وما أشبهه وكان نظيراً له، قال: ولا يخرج العلم عن هذه الوجوه الأربعة».

ثم فسَّر ابنُ عبد البر مرادَ الشافعي في قوله «ما كان في معناها»، ومرادَ محمد بن الحسن بقوله «وما أشبهه»: بأنه القياس.

---

(١) في «جامع بيان العلم» (١٤٠٣، ١٤٠٥).

والركن الثاني: ما يحصل للمشتغل بهذه المصادر الأربعة للشريعة الإسلامية من نور في القلب، يُورِث خشيةً لله تعالى راسخةً فيه، نابعةً ظاهرةً على جوارحه، متمثّلة في سلوكه العام.

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى[1]: «العلم والحكمة نور يهدي الله به من يشاء، وليس بكثرة المسائل»، وروى الرامهرمزي[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «ليس العلم عن كثرة الحديث، إنما العلم خشية الله».

أقسام العلم وأنواعه:

وهذا العلم المُثمِر لهذه الثمرة: هو العلم الذي أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب الازدياد منه، بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: ١١٤، وهو الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل اللهَ تعالى إياه، وعلَّمنا أن نسأل اللهَ جل جلاله إياه، ووصفه بأنه علم نافع، واستعاذ بالله من علم لا ينفع.

روى ابن أبي شيبة[3] وغيرُه، عن أم سلمة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو إذا صلى الصبح حين يسلِّم: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبَّلاً»، وفي رواية: «ورزقاً واسعاً...».

---

(١) كما في «المحدث الفاصل» (٧٥٥) و«جامع» ابن عبد البر (١٣٩٥، ١٣٩٨، ١٣٩٩).

(٢) «المحدث الفاصل» (١٤٠٠، ١٤٠١).

(٣) في «مصنفه» (٢٩٨٧٥)، وغيره كثير، ينظر تخريجه هناك.

وهذا الدعاء النبوي الكريم يحتاجه كلُّ مسلم، فإن كان طالب علم ودراسة: سأل الله علماً نافعاً، وإن كان طالب عمل حرّ مسترزِق: سأل الله رزقاً طيباً حلالاً، وهو في خلال يومه وليلته لا بدّ له من القيام بأعمالٍ دينية واجبة عليه، كالصلوات الخمس، فهو يسأل الله تعالى: عملاً متقبَّلاً، فالعمل غير المقبول ـ أيضاً ـ مردود على صاحبه، ووبال عليه.

وروى ابن أبي شيبة[١] عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان يدعو في سجوده: «اللهم لك سجد سوادي[٢]، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعني، وعملاً يرفعني»، والعمل المقبول هو الذي يرفع صاحبه عند سيده ومولاه جل جلاله.

التحذير من العلم غير النافع:

وينبغي لطالب العلم أن يكون شديد الحذر من الوقوع في شِبَاك هذا العلم ـ غير النافع ـ، فإن الواقعين فيه كثير، وما أحوج طالبَ العلم إلى أن يُوقِظ نفسَه من دخائل العلم وأمراضه، فيحاسبَ نفسه، ويفتّش نواياه، قبل فوات الأوان. وإن مما يُوقظه من هذه الغَفَلات قراءةَ رسالة الإمام الذهبي رحمه الله «بيان زَغَل العلم والطلب»، ولو أن رجلاً من أهل العلم والعمل والنصح في زماننا، كتب كما كتب الذهبي في أيامه، لأسْدى إلى طلاب العلم ومَن وراءهم خيراً كبيراً، فإن بين مَن يزعم الاشتغال بالفقه

---

(١) في «مصنفه» (٤٤٠٦) أيضاً.

(٢) في «مفردات الراغب»، و«النهاية» لابن الأثير ـ مادة س و د ـ: أن السواد يعبَّر به عن المرئي من بعيد، سواء أكان إنساناً، أم متاعاً، أم غير ذلك.

الإسلامي، وبالحديث الشريف، مَنْ يُحْذَر جانبه أكثر مِن الحذر من الجهل والجهال.

وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم: أن أول من يُقضَى عليه يوم القيامة مجاهد شهيد، وعالم معلِّم، وغني متصدِّق[١].

وهذا هو الحديث الرابع في كتابي «من صحاح الأحاديث القدسية»، وهذا محل الشاهد من الحديث، ثم شرحه.

يقول صلى الله عليه وسلم: «إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى العباد ليقضيَ بينهم، وكلٌّ أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يُقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلِّمكَ ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يارب، قال: فماذا عملتَ فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل، وآناء النهار، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبتَ، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إن فلاناً قارىء، فقد قيل ذاك».

وقلت في شرحه هناك ـ غفر الله لي ـ مع شيء من الاختصار:

فأول الثلاثة: رجل جَمَع القرآن فحفظه وعَلِمه، يقول الله تعالى له يوم القيامة ـ وهو أعلم بحاله ـ: «ألم أُعَلِّمْك ما أنزلتُ على رسولي؟»، قال له ذلك تمهيداً لإقامة الحجة عليه، فيقول: «بلى، يا رب»، وهذا إقرارٌ بنعمة عظيمة تَستَوجبُ منه شكراً عظيماً، هي نعمة العلم: العلم

(١) عند مسلم ٣: ١٥١٣ (١٥٢)، والترمذي (٢٣٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بالقرآن الكريم، كلام رب العالمين، الذي جمع الله فيه الخير من أطرافه، فما من خير في الدنيا والآخرة إلا ودلَّنا عليه القرآن الكريم.

إلا أن هذا الرجل لم يكن من الموفَّقين، ولم يَصْدُقِ الله في دنياه، ولا في آخرته، فلما قال الله له: «ماذا عَمِلتَ فيما عَلِمتَ؟ قال: كنت أقوم به آناءَ الليل وآناءَ النهار»، زعم أنه شَغَل نفسَه بالقرآن الكريم ساعاتِ الليل وساعات النهار كلَّها، وغفل هذا المسكينُ عن روح الاشتغال بالقرآن وتفسيره وفقهه، وعن المقصود الأكبر من ذلك! غَفَل عن أن الله سبحانه يحبُّ من عبده أن يُطَهِّر قلبَه وقَصْدَه من كل ما سواه، وأن واجب العبد إفرادُ الله تعالى بالإرادة والتوجُّه.

ومَن قرأ القرآن الكريم لا يَجهلُ هذه المعاني عِلْماً، لكنه قد يجهلُها عَملاً وسلوكاً، كهذا الصنف من القُرَّاء. نسأل الله علماً نافعاً.

ولذلك «يقول الله تعالى له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ»، ثم يبيِّن الله له حقيقةَ دَخيلته فيقول له: «بل أردتَ أن يقال: إن فلاناً قارىء، فقد قيل ذاك»، أي: قد وصلتَ إلى ما سعيتَ إليه، وحصلتَ على ما ابتغيتَه، فلم يبقَ لك مطلوب آخر.

ثم يُؤمَر به فيُسحبُ على وجهه ويُلقى في النار، كما جاء في رواية مسلم.

فإن قيل: فما ينبغي أن يكون قصد طالب العلم بعلمه؟

قلت: ينبغي أن يكون قصدُه: اللهَ، ومرضاته.

أن يكون قصدُه الله: في تعلُّمه ودراسته وكلِّ وسائل العلم، حتى في

ذهابه وإيابه وشرائه الكتب.. واختياره الشيوخ الذين يَصحَبُهم، فيصحبُ من يدلُّه على الله حاله ومقالُه أكثرَ من غيره.. حتى في زِيِّه وملبسه العلمي، يصحِّح نيته ويُحسِن قصده.

وأما ابتغاؤه مرضاةَ الله: ففي عمله بعلمه، وتطبيقه كلَّ خير يتعلَّمه، فما يمرُّ به أمرٌ إلهيٌّ أو نبويٌّ إلا بادر إلى تطبيقه، وما يمرُّ به نهي منهما إلا انتهى عنه.

فما تمضي عليه أيام إلا عُرف الخير في هديه وسلوكه، وما تمضي عليه سنواتٌ قلائلُ إلا وهو عالم عامل.

ومما يُحَذَّر منه طالب العلم في أيامنا هذه: انهماكُه في القيل والقال، وكثرة السؤال، والفضولِ في الكلام، والأخذِ في الجدال والمراء، وإغرابُه في المسائل والمحفوظات، والنقول عن غير المتداوَل من الكتب لدى العلماء، وأخذُه للعلم عن الكتب لا بالتلقِّي من أفواه العلماء عن طريق مصاحبتهم ومزاحمتهم عليه بالرُّكب.

وكذلك انصرافُه عن أدب العلماء وأخلاقهم مع سلفهم وشيوخهم، بل الازدراءُ بمن يتأدَّب بأدب العلماء، ووصفُه بأوصاف مُزْرية تنفِّر الناس منه، وظنٌّ بعض الناس أن العلم ما هو إلا معلوماتٌ تُحفظ ـ أو تُحفظ أسماءُ المصادر التي تبحثُ في مسألة كذا وكذا ـ ويتشدَّق بها في المجالس، أو تُملأ حواشي الكتب وتعليقاتُها بأسماء هذه المصادر، وحينئذ يُدْعَى صاحبها: بالعلامة المحقق، وعالم الوقت، ومحدث العصر..

أو باللجوء إلى الوسائل المعاصرة (برامج الحاسوب) التي فَتَنت

الناس، وجعلتهم يظنون أنهم صاروا بها علماء حفاظاً مجتهدين، استغنوا بها عن سؤال الشيوخ والعلماء عن كل صغيرة وكبيرة، وما دَرَوْا أن هذه البرامج ـ إن استعملها غير المختصين المتمكنين ـ سوف تكون من أعظم الوسائل التي ستحقِّق فيهم قول رسول الله ﷺ: «.. اتّخذ الناسُ رؤساءَ جهالاً، فسُئلوا فأفتوا الناس بغير علم، فَضَلُّوا وأضلّوا».

وأبعدُ من هذا وذاك مَنْ لا يشتغل بشيء من العلم إلا بمعرفة ما طُبع وما صَدَر حديثاً، ومَنْ حقَّقه، وأين مخطوطاتُه.. وهو يَظنُّ أنه صار مَرْجعَ العلماء، ومَحَطَّ الفضلاء...

والعلم فوق هذا، وغيرُ هذا، العلم: هو الحفظ والفهم، والعمل والتطبيق، والتخلُّق والتعبدُ، والتصوُّن والتحقُّق، والمحاسبةُ للنفس والمراقبة لله، والاهتداء بهدي سيد الأنبياء عليه أفضل الصلاة السلام، والاقتداء بسيرة أصحابه وتابعيه بإحسان.

ولْيقرأ ـ بشكل عام ـ سيرةَ السلف وتراجِمهم وحياةَ الأئمة العلمية والعملية، وليقرأ ـ بشكل خاص ـ: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي، و «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جَمَاعة، ومقدِّمة «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، و«شرح حديث أبي الدرداء: من سلك طريقاً يَلتمسُ فيه علماً» و «فضل علم السلف على الخلف» كلاهما لابن رجب الحنبلي.

فإنه إنْ قرأ هذا وأُشْرب قلبُه حبَّ ما يَقرأ: كان من المُفلحين إن شاء الله.

على أنه لا يُغنيه شيء عن صحبة العلماء العاملين، فإنهم هم الكتب الناطقة.

فإنْ سأل سائل: فماذا تسمِّي من يحفظ ويحقق ويُوصَف بالعالم والحافظ والفقيه.. وهو على غير ما رسمتَ ووصفتَ؟.

فأقول في الجواب: أسميه بما سمَّاه به الإمام الوَرِع أبو محمد ابن أبي جَمْرة الأندلسي، صاحبُ «بهجة النفوس»، المتوفَّى سنة ٦٩٩ رحمه الله تعالى، وذلك فيما حكاه عنه تلميذه ابن الحاجِّ في كتابه الشهير «المدخل».

قال ابن الحاج رحمه الله تعالى[1]: «وكان سيدي أبو محمد - ابن أبي جمرة - رحمه الله إذا ذُكر له واحد من علماء وقته ممن يُنْسَب إلى طَرَف مما ذُكِر - أي: العلم، وقليلٍ من العمل، بالنسبة إلى ذاك الزمان: أواخر القرن السابع - ويُثْنى عليه إذ ذاك بفضيلة العلم، يقول: ناقل، ناقل، خوفاً منه - رحمه الله - على منصب العلم أن يُنْسبَ إلى غير أهله، وخوفاً منه أن يكون ذلك كذباً، لأن الناقل ليس بعالم في الحقيقة، وإنما هو صانع من الصنَّاع»!! انتهى النقل عن «صحاح الأحاديث القدسية».

وفي القضاة والمحامين العاملين في المحاكم المدنية أو المحاكم الشرعية، من يُتْقِن فقه المعاملات، أو فقه الأحوال الشخصية، أكثرَ من كثير من طلاب العلم أو أساتذتهم من الشيوخ، لكن هؤلاء الشيوخ على هدى ونور، وجُلُّ أولئك القضاة والمحامين على غير ذلك، فلم يدوَّن العلمُ الشرعيُّ، والموروثُ المحمدي، ليُحفظ في الأدمغة، أو يُلقى في

(١) في أوائل «المدخل» ١ : ١٧

المحاضرات والندوات فقط، بل لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وللعمل به، ونشره وتوريثه للأجيال اللاحقة على وجه صحيح صافٍ لم يتلوَّث ولم يتعكّر بشهوات ونَزَاوت شخصية.

روى ابن أبي شيبة[1] عن زيد بن أرقم، وأبي هريرة، وابن مسعود، وأنس، وحبيب بن أبي ثابت مرسلاً، وابن عَمْرو: التعوُّذَ بالله «من علم لا ينفع»، وروى قبلُ عن جابر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ الجمع بين الأمرين: «سلوا الله علماً نافعاً، وتعوَّذوا بالله من علم لا ينفع»، وينظر تخريجها كلِّها هناك من كتب السنة الأخرى.

التنبيه إلى القسم الثالث من أقسام العلوم:

وسؤالُ الله تعالى العلمَ النافع، والعياذُ به من علم لا ينفع: يفيد أن هناك علماً ثالثاً هو العلم الضارّ، فالذي لا ينفع: هو الذي لا ينفع ولا يضر، وهو في حقيقته ضارّ، لأن صاحبه المبتلَى به: ينفق مواهبه وماله ووقته وجهده بما لم ينتفع به في آخرته، فهو في الحقيقة ضارّ، وإذا كان الذي لا ينفع: يُستعاذ بالله منه، فالذي يتمحَّض ضرره يُستعاذ بالله منه من بابِ أولى.

وخلاصة الأمر: أن العلم النافع هو الذي حملك على العمل به، وعلى المزيد من التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحات، وأنار قلبك، وهذَّب نفسَك فصرْتَ تقف عند كل أمر صغير أو كبير، كما كان يقف

---

(١) (٢٩٧٣٤، ٢٩٧٣٦ ـ ٢٩٧٣٨، ٢٩٧٥٣، ٢٩٧٦٠، ٢٧٢٤٨).

عنده النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه الصادقون، اللهم أكرمنا بذلك.

وقد كتب الحافظ ابن رجب رحمه الله كلمات نافعات في علامات العلم النافع وأهله، والعلم الذي لا ينفع، في جزئه المبارك «فضل علم السلف على علم الخلف»(١)، فتنظر.

كما عبَّر عن مكانة الكلمة من العلم النافع، وأهميتها، أصدقَ تعبير، الإمام التابعي الكبير الشعبي رحمه الله تعالى، بقوله: «لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن، فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره، رأيتُ أن سفره لا يضيع»(٢).

* * * * *

(١) ص٧٠ وما بعدها.

(٢) أسنده إليه الخطيب في «الرحلة في طلب الحديث» ص٢٦.

الفصل الثاني

بيان أهمية المنهج لطالب العلم

معنى المنهج:

أما المعنى اللغوي: فتقول كتب اللغة عن: النَّهْج، والْمَنْهج، والْمِنهاج: إنه الطريق الواضح البيِّن المسلوك، جاء هذا المعنى في كتب اللغة وما شاكلها، ينظر ـ مثلاً ـ «الصحاح»، و«لسان العرب»، و«المصباح المنير» مادة: ن هـ ج، و«مفردات» الراغب الأصفهاني، والمناوي في «التوقيف»، و«الكليات» لأبي البقاء الكَفَوي[(١)].

وما يزال أهل المغرب العربي يسمون بعض طرقهم: نهج فلان، أو: نهج كذا، كما يسمي المشارقة: طريق فلان، أو: طريق كذا.

وإذا كان (المنهج) هو (الطريق)، فإن طلب العلم على غير منهج: سير على غير طريق بيِّن واضح مسلوك، وبالتالي: فإنه سير إلى غير هدف محدَّد، وما كان كذلك فهو إلى غير النجاح أقرب، ومن هنا ندرك أهمية المنهج.

---

(١) «الصحاح» ١ : ٣٤٦، و«لسان العرب» ٢ : ٣٨٣، و«المفردات» ص٨٢٥، والمناوي في «التوقيف» ص٦٨١، وأبو البقاء ص٥٢٤.

أهمية المنهج :

وكما أننا ندرك أهمية المنهج مما تقدم من معناه اللغوي، فكذلك ندركها من واقع الناس في مختلِف ألوان حياتهم، فإن أي عمل دنيوي أو علمي يقوم به أي شخص، لا يصل، ولن يصل، إلى نتائج سليمة إذا لم يضع خِطةً ودراسة لعمله أولَ ما يبدأ به. ولْنفرِض مثلاً على ذلك:

أراد طالبان أن يكتبا بحثاً أو أطروحة علمية لنيل درجة الماجستير أو العالِمية (الدكتوراة)، أما أحدهما: فكتب خِطة وافية لبحثه من أوله إلى آخره، وأما الآخر: فبدأ بالكتابة دون شيء من هذا، فإن النتيجة الحتمية لكل واحد منهما سابقةُ التصورِ في ذهنِ كلِّ سامعٍ لأمرهما: نجاح الأول، وخسران الثاني أو تعثُّره.

ولما كان الطريق ـ طريق العلم ـ طويلاً وشاقاً: رأيت أن أجعل أثناء رسمه لطالبه معالمَ ومناراتٍ ومِحطّات ترشد السالك فيه، وتنير له خُطاه ـ إن شاء الله ـ، سميتها: معالم.

والمَعْلَم في اللغة: الأثر الذي يُستدل به على الطريق، هذا لفظ الجوهري في «الصحاح»، ونحوه في «لسان العرب»[1]: «ما جُعل علامة وعَلَماً للطرق».

واللفظ الأول يعبِّر عن مرادي تماماً، فهذه المعالم جعلتها آثاراً ومناراتٍ يَستدل بها طالب العلم، ويسترشد بها في طريقه للوصول إلى

---

(١) «الصحاح» ٥: ١٩٩١، و«اللسان» ١٢: ٤١٩.

العلم، على هدى وبصيرة إن شاء الله تعالى.

وإن جُلَّ أركان هذا المنهج ومناراته التي سأتحدث عنها، مستفاد من واقع طالب العلم الدارس له في المعاهد الشرعية - قبل ذَوَبانها -، مع زيادات يسيرة كمّاً، مهمةٍ نوعاً، مع إلقاء الضوء عليها، ولفت النظر إليها.

لكنْ كونُ جلِّ هذه المنارات مستفاداً من الواقع: لا يعني عدمَ الحاجة إلى الكتابة، أو تقليلَ الإفادة، ذلك لأن جُلَّ المشتغلين الآن في البحث والتأليف والتحقيق هم من غير الدارسين للعلم، المتلقين له في المدارس والمعاهد الشرعية، بل هم من المتطفلين على موائده، المتعالمين على أهله، وزيادةً على ذلك فإن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة صارت لهم أبواقاً ترفع أصواتَهم أمام أهل العلم الصامتين إلا عن قولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ويا ليت قومي يعلمون!!.

كما أن غِياب المنهج - منهج طلب العلم - عن أذهان الناس في هذه العقود الأخيرة من الزمن: رفع عندهم أناساً كثيرين غيرَ متأهلين للرِّفعة، وخفض وغيَّب عن الساحة العلمية بعض الرفعاء المتأهلين للصدارة العلمية، كما أظهر على الساحة العلمية أناساً كثيرين من (أنصاف المتعلمين)، كان لهم على العلم ويلاتٌ وويلات!.

فهذا سبب من أسباب الضرورة الملحَّة على الكتابة في بيان المنهج السليم لتحصيل العلم الشرعي.

وسبب آخر يلحّ على الكتابة فيه أكثر من الذي قبله: هو أننا قادمون على مستقبل علمي قريب، لكنه قاتم غير مشرق، يحصد المسلمون والمتعلمون منه آثاراً علمية سيئة، وذلك من جراء الدراسة عن طريق

الجامعات المفتوحة!! وسيأتي الحديث ـ إن شاء الله ـ عن هذا وعن الذي قبله[١].

من هم أصحاب القرار في أهمية المنهج؟ :

إن أصحاب الاختصاص في كل أمر ومجال: علمي أو دنيوي، هم الذين يدركون أهمية ما يقرِّره هؤلاء المختصون، فالطبيب هو الذي يدرك أهمية الوقاية من عدوى نقل الدم، أو السُّعال، أو عُطاس المزكوم ـ مثلاً ـ، فيشدِّد في الوقاية حال نقل الدم، ويشدِّد على جلساء المزكوم، وعلى المزكوم نفسه، وكثير جداً من الناس لا يدركون أهمية نصائح الطبيب لهم في ذلك، فيتساهلون ويتواكلون، أو يستخفّون بوصايا الطبيب.

ونرى علماء القراءات ـ مثلاً ـ يشددون على الناس في قراءة القرآن الكريم، في إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، وغيرُهم يرى ذلك تشديداً وتضييقاً لا حاجة إليه، مع أن القول قول القراءِ لا غيرِهم. وهكذا وهكذا أصحاب الفنون الأخرى.

وكذلك القول هنا في أهمية طلب العلم على منهج سليم رشيد، يدرك أهميتَه طالبُ العلم الذي يعيش آلامَ انتهاكِ حرماتِ العلم والدين، ممن يحملون ألقاباً علمية لكنها خلاّبة!، فهؤلاء هم الذين يدركون ضرورة الحثّ على الرجوع إلى منهج علمائنا السابقين في طلب العلم وتحصيله،

---

(١) صفحة ١٨٩.

ليرى المسلمون من جديد أنهم يعيشون بين علماء عاملين، راسخين صادقين، يتمثَّل فيهم العلمُ الحقُّ، والإسلامُ الحيُّ، والأمةُ بآمالها وآلامها، يعيش الواحد منهم للأمة لا لنفسه.

وأما الذين وصفتهم: يحملون ألقاباً علمية خلاّبة: فهؤلاء يَسعون لتغييب أهمية المنهج عن أسماع الناس، لئلا يُكشَف حالهم وعُوارهم، فيُطردون عن الساحة العلمية، هم ومن جَرَّأهم على اقتحام كرامة العلم، فارتقوا منابر الإعلام، فحقَّ عليهم - وفيهم - قول القائل(١):

تصدَّر للتدريس كل مُهَوَّس ... بليدٍ يسمى بالفقيه المدرِّس

---

(١) هو الإمام النحْوي أبو الحسن علي بن أحمد بن علي الفالي - بالفاء - المؤدب، المتوفى ٤٤٨، ذكرها له ابن الجوزي في «المنتظم» ١٦ : ١٠، وياقوت في «معجم الأدباء» ٤ : ١٦٤٦، وابن كثير في «البداية» ١٥ : ٧٣٩، إلا أن ياقوتاً ذكرها قبلُ ٣: ١٠٦٣ في ترجمة أبي علي الحسين بن سعد الآمدي، اللغوي المتوفى ٤٤٤!.

ويؤكد أنها للفالي لا للآمدي: أن ابن الجوزي وياقوتاً نفسه أسندا إليه من رواية الخطيب التبريزي، عنه، أبياتاً أخرى فيها هذا المعنى، وهي:

لما تبدَّلت المجالس أوجهاً ... غيرَ الذي عهدتُ من علمائها

ورأيتها محفوفة بسِوى الأُلى ... كانوا ولاةَ صدورها وفِنائها

أنشدت بيتاً سائراً متقدِّماً ... والعينُ قد شَرِقتْ بجاري مائها

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحيِّ غيرَ نسائها

وكأن الشيخ عُمِّر طويلاً، ورأى الفرق بين من أدركه الشيخ، وبين من أدركوه.

ثم، إن الفالي هذا، غير الإمام أبي علي القالي - بالقاف - صاحب «الأمالي» المشهورة، وسبق ذهن الحافظ ابن كثير فنسب «الأمالي» إلى أبي الحسن الفالي.

فَحُقَّ لأهل العلم أن يتمثَّلوا ببيت قديم شاع في كل مجلس:

لقد هُزِلتْ حتى بدا من هُزالها كُلاها وحتى سَامَها كلُّ مفلس

والله سبحانه هو المسئول أن يوفقنا لما فيه رضاه، وأن يُعيد الحقَّ إلى أهله ونصابه.

* * * * *

الفصل الثالث

بيان فضل العلم والعلماء

تمهيد :

لقد كتب السابقون واللاحقون من علمائنا رضي الله عنهم في هذا المضمار ما يصعب حصره تعداداً ـ فضلاً عن حصره جمعاً ـ، وكنت أودّ ـ وأنا في أول سنوات الطلب ـ لو جُمع في مجلد واحد بين ما كتبه الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في أول «الإحياء»، وبين ما كتبه الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله في شرح حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً» الذي طبعه أولَ من طبعه الأستاذ محب الدين الخطيب بعنوان: شرح حديث أبي الدرداء، وبعد سنينَ طويلة طُبع باسم: إلى ورثة الأنبياء، ثم، وثم، ويضاف إليهما: ما يُنتَقى مما كتبه الإمام ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة»، كنت أودُّ لو جُمع هذا في مجلد واحد لكان عملاً نافعاً مبروراً، ومع هذا فهو غيض من فيض، مما كتبه العلماء في هذا الباب.

وممن كتب فيه من أئمتنا وسلفنا: الإمام أبو خيثمة زهير بن حرب النسائي (١٦٠ ـ ٢٣٤) رحمه الله تعالى، سماه «كتاب العلم»، وهو مطبوع، وهو من شيوخ الشيخين البخاري ومسلم، كما أفرد له الأئمة الآخرون باباً خاصاً في دواوينهم الأصول: عبد الرزاق، وابن أبي شيبة في مصنفيهما،

والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وابن حبان، والحاكم، وأوسعهم الدارمي، من رقم (١٠١ ـ ٦٤٩)، لأنه ما اقتصر على المرفوعات، فأتى بالكثير الطيِّب المفيد، تحت ٤٠ باباً، وأقلُّهم ذكراً لأحاديث العلم: مسلم، رحمهم الله جميعاً.

ثم أفرده بالتأليف: الخطيبُ في كتابيه: «آداب الفقيه والمتفقه»[(١)]، و«الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع»، كما أفرد في الحضّ على العمل بالعلم جزأه «اقتضاء العلمِ العملَ»، وابنُ عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»، ثم أفرد باباً من أبوابه: الإمام أبو سعد السمعاني، فكتب رحمه الله: «أدب الإملاء والاستملاء»، وأتى فيه بغُرَر ودُرَر.

وجمع الحافظ الهيثمي فأمتع، في كتابه خزانة السنة النبوية «مجمع الزوائد»[(٢)]، وهو مصدر غنيّ جداً في هذا الموضوع.

ومع ذلك فلا بدّ من كلمات في مبحثين:

١ ـ كلمات في فضل العلم، وفضل مجالسه.

٢ ـ وكلمات في فضل العلماء، وأثرهم في الأمة.

* * * * *

---

(١) هكذا سماه النووي في «تهذيب الأسماء واللغات» ٣: ١٢٣، وسماه الطوفي في «شرح مختصر الروضة» ٣: ٢٨٨: «آداب الفقيه والمتفقه»، والأول أولى، وإن طبع مرتين باسم: «الفقيه والمتفقه».

(٢) ١: ١١٩ ـ ٢٠٢.

المبحث الأول

كلمات في فضل العلم، وفضل مجالسه

فضل العلم في كتاب الله :

أما فضل العلم في كتاب الله : فإن الله تعالى قد أبان عن فضل العلم في قصة آدم عليه الصلاة والسلام في أوائل سورة البقرة، وذلك أنه تعالى أسجد ملائكته لآدم، فأظهر فضله لهم ولمن سواهم من الإنس والجن إلى يوم الدين، لكن جاء هذا الأمر بالسجود بعد أن علَّمه تعالى الأسماء كلها، وأظهر لهم توقُّفهم عن الإجابة، فحينئذ أمرهم بالسجود لآدمَ العالمِ بالأسماء كلها.

فبالعلم شَرُف آدم عليه الصلاة والسلام، وبه استحقَّ سجود الملائكة.

ومن هنا ـ والله أعلم ـ كان احترام متوارث من الملائكة الكرام لطالب العلم، إذ تضع أجنحتها استرضاء منهم لطالب العلم، كما هو معلوم من الحديث المشهور: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً، سلك الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم»[1].

وهذا الإكرام الإلهي صالح للاستدلال به هنا على فضل العلم، كما هو صالح للاستدلال به على فضل العلماء.

---

(١) هذا لفظ الترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

ومما أشار إليه القرآن الكريم على فضل العلم: أنه مَنْجاة لصاحبه من كل مهلكة، وكلٌّ هلكة ونجاة تكون بحسبها، في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: ففي قصة الهدهد مع سيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فإنه توعّد الهدهد بالعذاب الشديد أو بالذبح، فكانت نجاته من هذا الوعيد الشديد بالعلم، قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ النمل: ٢٢، وكان من جرّاء ذلك إيمان بلقيس وقومها.

وأما في الآخرة: ففي آخر قصة قارون من سورة القصص: الآيات ٧٦ ـ ٨٣: افتتن أهل الدنيا بمال قارون وأُبّهته وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، أما ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ الحقيقي، وهم الربانيون فقالوا: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، ثم أظهر الله لهم حقيقته: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ..﴾ إلى قوله ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، فهذه عاقبة الغافلين، وهذه عاقبة العالِمين العاملين.

ومن طرائف ما يذكر في هذا المعنى ـ نجاةِ العالم بعلمه ـ: أنه كان من رجالات الخوارج وقوادها رجل اسمه: شبيب بن يزيد الشيباني الخارجي، خرج على عبد الملك بن مروان، وكان في نهاية أمره أن مات غَرَقاً، وكان قد ادعى لنفسه الخلافة، وكان أحدُ أتباعه ـ واسمه عِتبان الحروري ـ قال: فيه أبياتاً يصفه فيها بـ: أمير المؤمنين، وذلك في قوله مخاطباً لعبد الملك ابن مروان:

فمنّا حُصينٌ، والبَطينُ، وقَعنب ومنا أميرُ المؤمنين شبيب

وبعد أن غَرِق شبيب جيء بعتبانَ هذا إلى عبد الملك، فقال له: ألستَ

القائل يا عدو الله:

فمنّا حُصين، والبَطين، وقعنب ... ومنــا أميــرُ المــؤمنـين شبـيـب

فقال عِتبان: لم أقل كذا يا أمير المؤمنين، وإنما قلت:

ومنا ـ أميرَ المؤمنين ـ شبيب

فاستحسن قوله، وأمر بتخلية سبيله، فنجا من القتل بعلمه بتصريف الكلام(١).

ومن أشهر ما يذكر في فضل العلم من كتاب الله: قوله جل شأنه لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم في سورة طه: الآية ١١٤: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ولم يأمر الله تعالى حبيبه صلى الله عليه وسلم ـ ولا غيره ـ من عباده بالازدياد من شيء إلا بالازدياد من العلم، ولا ريب أن المراد به: العلم بالله تعالى، وبصفاته وجلال قدسه، وبما يزيده قرباً منه سبحانه.

وقد رُوي مرفوعاً: «اللهم انفعني بما علمتَني، وعلِّمني ما ينفعني، وزدني علماً»(٢).

وقال الله عز وجل في أواخر سورة التوبة: الآية ١٢٢: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ

---

(١) وممن ذكر هذا الخبر ابن خلكان ٢: ٤٥٦ وقال: هذا الجواب في نهاية الحسن، وفسّره.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٩٩) ـ وضعّفه ـ، وابن ماجه (٢٥١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

والمعنى الإجمالي لهذه الآية الكريمة ـ في حق مَن جاء بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ـ هو: أنه لا ينبغي لجميع المومنين أن ينفروا للجهاد، بل تخرجُ جماعة منهم لطلب العلم والتفقه في الدين، ثم ترجع هذه الجماعة إلى أقوامهم ليعلِّموهم ويفقهوهم، فعَدَلَ طلبُ العلم الجهادَ في سبيل الله، وهو هو الجهاد الذي هو ذِرْوة سَنام الإسلام(١).

وقد نقل ابن عبد البر خبرين عن أبي الدرداء رضي الله عنه يفيدان أن طلب العلم يعدِل الجهاد، بل نقل بينهما عن ابن عباس: أن تعليم العلم خير من الجهاد(٢).

ونقل أبو الحسن القابِسي المالكي في «الرسالة المفصِّلة لأحوال المتعلمين»(٣)، عن الإمام ابن الإمام: محمد بن سُحنون (٢٠٣ ـ ٢٥٦) رحمهم الله تعالى: أنه كان لرجل ولدٌ يطلب العلم عند ابن سُحنون، فجاء الأبُ ـ ولَنِعم الأبُ كان ـ إلى الأستاذ وقال له: إني أتولّى العمل بنفسي، لا أشغَلُه عما هو فيه من طلب العلم، فقال له الأستاذ محمد بن سحنون ـ ولَنِعم الأستاذُ كان ـ: «أعلمتَ أن أجرك في ذلك أعظمُ من الحج والرباط والجهاد!». أي: الحج النافلة، والرباط والجهاد الكفائي.

---

(١) وينظر تفسير الآية عند ابن العربي في «أحكام القرآن» ٢: ٦٠١، وفي القرطبي ٨: ٢٩٣ زيادة عليه.

(٢) في «جامعه» (١٥٩، ١٦١، ١٦٠).

(٣) صفحة ٨٩.

وفي هذا الخبر درس لكل والد أو وليّ أمر، أكرمه الله بتوجّه أحد أبنائه إلى طلب العلم: أن يكفيه مؤونة العيش، ولو بقدر المستطاع، وأن يفرِّغه من مسئولية عيش الدنيا، ونفقاتها، ومشاغلها، ليبقى مستريح البال، منقطعاً لدراسته.

وأذْكَرني هذا بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه[١] قال: كان أخوانِ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فكان أحدهما يأتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم، والآخر يحترِف، فشكى المحترِف أخاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: «لعلك تُرْزَقُ به».

وقال الحافظ ابن رجب[٢]: «إن العلم أفضل أنواع الذكر، وهو أفضل أنواع الجهاد»، وقال في «لطائف المعارف»[٣]: «نصَّ الأئمة الأربعة على أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، لأن العلم مصباح يُستضاء به في ظلمة الجهل والهوى، فمن سار في طريقٍ على غير مصباح: لم يأمن أن يقع في بئرٍ بَوَارٍ فيعطب».

أما البرهان الزَّرْنُوجيُّ رحمه الله فأفاد أن هناك خلافاً ضعيفاً في هذا الحكم، فقال[٤]: «إن طلب العلم أمر عظيم، وهو أفضل من الغَزَاة عند أكثر العلماء».

---

(١) الذي رواه الترمذي (٢٣٤٥) وقال: حسن صحيح.

(٢) في «شرح حديث أبي الدرداء» ص٣٧.

(٣) صفحة ١٣٠.

(٤) في كتابه «تعليم المتعلم» ص٨٣.

وأما فضل العلم في السنة النبوية: فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، رواه ابن ماجه[1] وغيره، من حديث أنس وغيره، وللعلماء كلام كثير عليه من حيثُ صحةُ إسناده، ومن حيثُ معنى متنه.

أما الإسناد: فهو صحيح بطرقه الكثيرة، وللإمام السيوطي جزء خاص به، وهو مطبوع، وقد رواه عن أنس رضي الله عنه فقط واحد وعشرون راوياً.

أما معناه: فالفرض فرضان:

فرض عينٍ للوقت الذي أنتَ فيه: ماذا يتطلَّبه الإسلام منك، وذلك: كمن بلغ سنَّ التكليف قبل صلاة العصر ـ مثلاً ـ فإن الله عز وجل يطلب منه ويكلِّفه فوراً بتعلِّم أحكام الطهارة والصلاة، ليقوم بها ويؤدي صلاة الظهر قبل خروج وقتها بدخول صلاة العصر.

وإن كان بلوغه في أشهر الحج، فإن لله عليه أداءَ فريضة الحج، فعليه أن يتعلم أحكام الحج فوراً ويستعدّ لأدائه، إن توفرت له الواجبات الأخرى، وهكذا حكم الزكاة، وحكم الصيام.

كما أن لهذا الإنسان البالغ الآن أبوين، فعليه أن يتعلم حقوقهما عليه في حال حياتهما ـ أو بعد وفاتهما، إن كانا تُوفِّيا ـ، ويؤديها عن علم وبصيرة، لا عن وراثةِ مجتمعٍ وأعرافٍ وعاداتٍ، وهكذا يتدرج في العلم

(١) في «سننه» (٢٢٤).

الشرعي المفروض عليه، في كل مرحلة من مراحل حياته: إذا تزوج، وإذا وُلد له، أو صار مدرساً، أو صار قاضياً، وهذا أمر مشهور تقريره بين أهل العلم(١).

وفرض كفاية: إنْ قمتَ به أنت كَفَيت غيرك المؤونة، أو قام به غيرك كفاك المؤونة، إنْ حصلت الكفاية وقُضي الأمر، وإلا فلا. فعشرةٌ من الأطباء المسلمين المختصين بأمراض القلب ـ مثلاً ـ لا تقوم بهم الكفاية في البلد، فحينئذ نقول: على المسلمين أن يجنِّدوا من أبنائهم عدداً آخر لهذا الاختصاص، إلى أن تحصل بهم الكفاية، وإلا فالمسلمون الذين في البلد كلُّهم آثمون غير قائمين بهذه الفريضة.

وهكذا يقال في عدد العلماء المختصين بالعلوم الشرعية التي يَحتاجها المسلمون في البلد، وعددِ المهندسين المسلمين، وعدد الاقتصاديين المسلمين، وعددِ وعددِ، على جميع المسلمين في كل بلد: أن يوفِّروا حاجيات المسلمين فيها من أبنائهم، ويتدرَّجوا في العدد والعُدَّة، في الكمِّ والكيف، مع توسع البلد وتنوّع حاجياتها.

والمهم هنا: التنبيه إلى سداد الحاجة الإسلامية الملحَّة في هذا الصدد، وأنه يجب على المسلمين أن يوظِّفوا ويجنِّدوا من أبنائهم للعلوم

---

(١) وقد تكلم في هذ الأمر كثير من العلماء السابقين واللاحقين، ولعل أقدم من نُقل عنه كلام في بيانه الإمام المجتهد عبد الله بن المبارك رحمه الله، نقله عنه ابن أبي العوام في «فضائل أبي حنيفة» (٥٧٠) فينظر فيه.

الشرعية بمختلِف اختصاصاتها، وبمختلفِ حاجيات كل بلدة، ما يسدُّ حاجاتها كمّاً وكيفاً.

تنوع حاجات المجتمع لطالب العلم :

وحاجات كل مجتمع مسلم ـ من حيث الجملة، وفي كل بلد، ولو كان غير إسلامي ـ متنوِّعة إلى ثلاث مراحل من طلبة العلم:

١ ـ يحتاج إلى عدد وفير من طلاب العلم النابهين يقومون بوظيفة المحاريب والمنابر. أي: إلى أئمة وخطباء، يسدُّون هذه المهمة الإسلامية، والشعيرة الدينية، وإن من أشراط الساعة أن تَفتقر الأمة وتفتقد إماماً حين تُقام الصلاة في المسجد، فلا يجدون إماماً يتقدمهم، فيتدافعون الإمامة: أنتَ، لا بل أنتَ، وهكذا.

٢ ـ ويحتاج كل مجتمع مسلم إلى عدد من العلماء المتمكِّنين في علمهم ووعيهم، يفتونهم بحكم الله في مهماتهم العامة.

٣ ـ ويحتاجون إلى طائفة أعلى من التي قبلها في تمكُّنها واختصاصاتها العلمية، وفي وعيها وثقافتها العامة، لتقول حكم الله في المشكلات العامة، ولتردَّ شُبَه المضلِّلين حول كل العلوم الإسلامية، من شُبه في العقيدة، وحول كتاب الله تعالىٰ، وحول السنة النبوية، والفقهِ الإسلامي، واللغةِ العربية لغةِ الكتاب والسنة، وما إلى ذلك مما يتصل بالإسلام.

وهذه الطائفة الأخيرة لا تكون وقفاً على بلد دون بلد، بل هي للمسلمين في كل مكان، ولذلك فإن إعداد هذه الطائفة عدداً وعُدَّة واجب

على المسلمين عامة، ويجب أن يكونوا دائماً في نَمَاء وازدياد، لأن الحاجة إليهم هي في نماء وازدياد دائم من قِبَل أولئك الذين يفتحون على المسلمين ثغرات الشبه والإضلال.

وللحديث عن هذه الطائفة، وعن الحاجة إليها، وعن سُبُل إعدادها، وعن مجالات علمها وعملها: مناسبةٌ أخرى واسعة إن شاء الله تعالى ويسّر.

ومما يُذكر في فضل العلم: هذا الحديث الذي يُروى عن عبد الرحمن ابن أَبْزَى الخُزاعي، وهو من طبقة صغار الصحابة، أو: عن أبيه أبزى، قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فأثنى على طوائفَ من المسلمين خيراً، ثم قال: «ما بالُ أقوامٍ لا يفقِّهون جيرانهم، ولا يعلِّمونهم، ولا يُفَطِّنونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم! وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقَّهون، ولا يتفطَّنون! والله ليعلِّمَنَّ قوم جيرانَهم، ويفقهونهم، ويفطِّنونهم، ويأمرونهم، ويَنْهَوْنهم، وليتعلَّمَنَّ قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتفطنون، أو لأُعاجلنَّهم العقوبةَ في دار الدنيا»، ثم نزل فدخل بيته.

فقال قوم: مَن ترونه عَنَى بهؤلاء؟ فقالوا: نُراه عنى الأشعريين، هم قوم فقهاء، ولهم جيران جُفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله! ذكرتَ قوماً بخير، وذكرتَنا بشرّ! فما بالُنا؟ فقال: «لَيعلِّمَن قوم جيرانَهم، ولَيفقِّهُنَّهم، وليفطِّنُنَّهم، وليأمُرُنَّهم، ولَيَنْهَوُنَّهم، وليتعلَّمَن قوم من

(١) لعله يريد الثغر الموضع يخاف هجوم العدو منه
(٢) واحده المجال هو موضع الجولان؛ الجولان أو الجولاني هو عام المنفعة للقريب والبعيد

جيرانهم، ويتفطَّنون، ويتفقهون، أو لأُعاجِلنهم بالعقوبة في دار الدنيا».

فقالوا: يا رسول الله، أنُفطِّن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، وأعادوا قولهم: أنُفطِّن غيرنا؟ فقال ذلك أيضاً، قالوا: فأمهِلنا سَنَة، فأمهلَهم سنة ليفقهوهم، ويعلموهم، ويفطِّنوهم، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾(١).

وفي هذا من الزجر الشديد «لأُعاجِلنّهم بالعقوبة في دار الدنيا»: ما لم يَرِد في غيره من النصوص المؤكِّدة على أهمية التعلم والتعليم، فلذلك خصَصتُه بالذكْر.

وسبب ذلك: أنه بالعلم تصح العقيدة، والعبادة، والمعاملة، والأخلاق والسلوك، والعقل والفكر، والعلم، وإذا صحت هذه الجوانب

---

(١) الآيتان ٧٨ ـ ٧٩ من سورة المائدة. والحديث رواه الطبراني في «الكبير» ـ من القسم غير المطبوع ـ، ومن طريقه أبو نعيم في «المعرفة» ١: ٣٦٦، ورجح أنه من رواية عبد الرحمن بن أبزى، وتبعه ابن الأثير في «أُسْد الغابة» ١: ٥٦، ورواه البخاري في «الوحدان»، وابن منده في «المعرفة» أيضاً، ومن طريقه ابن عساكر ٣٢: ٥٨، على أنه من رواية أبزى والد عبد الرحمن، ورجحه الحافظ في «الإصابة» ترجمة أبزى. والله أعلم.

وممن رواه: ابن السكن وقال: إسناده صالح، كما في «كنز العمال» ٣: ٦٨٤ ـ ٦٨٥ (٨٤٥٧)، وذكره المنذري في «الترغيب» ١: ١٢٢ وصدَّره بلفظٍ يُشعر بقبوله.

من المسلم صحَّتْ له دنياه وآخرته، واستقام منه كل شيء[١].

وسبب آخر: لو كان شيء أفضلَ من العلم لورَّثه الأنبياء مِن بعدهم لأممهم، لكنهم لم يورِّثوهم شيئاً غيرَ العلم.

وروى الطبراني في «المعجم الأوسط» بإسناد حسن، كما قال الهيثمي[٢]: أن أبا هريرة رضي الله عنه مرَّ بسوق المدينة، فوقف عليها فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقْسَم وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه! قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد فدخلنا، فلم نَرَ فيه شيئاً يُقْسَم! فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى، رأينا قوماً يصلّون، وقوماً يقرؤون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم، فذاك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم.

وروى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»[٣] عن الأعمش قال: بينما ابن مسعود يوماً معه نفر من أصحابه، إذْ مرّ به أعرابي فقال: على ما

---

(١) وينظر ما سيأتي ص٥٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما من عند ابن عبد البر والخطيب.

(٢) «المعجم الأوسط» (١٤٢٩)، و«مجمع الزوائد» ١ : ١٢٤.

(٣) صفحة ٤٥.

اجتمع هؤلاء؟ قال ابن مسعود: على ميراث محمد صلى الله عليه وسلم يقتسمونه.

فليهنأ طلاب العلم بهذا الشرف، وحرام عليهم أن ينظروا إلى غيرهم أنهم أشرف منهم!.

أما فضل مجالس العلم: فهي نور الإسلام، وبها حياته واستمراره وامتداده، أسند الخطيب[(١)] إلى الإمام أحمد: أنه أقبل عليه أصحاب الحديث، وبأيديهم المحابر فأومأ إليها وقال: هذه سُرُج الإسلام، ولما قرأت الخبر في مصدره المذكور، أردت أن أعلِّق عليه بشرح هذا التشبيه العظيم، لكني رأيت فضيلة الأخ العلامة الدكتور أحمد محمد نور سيف وفّى بشرحه في كتابه الممتع «من أدب المحدثين في التربية والتعليم»، فقال جزاه الله خيراً[(٢)]: «هذا تشبيه رائع، فهي ـ المحابر ـ وإنْ أظلمت بواطنها بالأحبار، فمن دياجيرها أشرق نور الهداية والرشاد، وإذا ما انغمست فيها الأقلام، وجرتْ على القرطاس والطروس، سطّرتْ من الحكم ولطيف المعاني ما يحيى النفوس، ويُذكي الأفهام، ويبدِّد الشكوك والأوهام، ويَهدي القلوب الحائرة إلى نور الإسلام».

ومن أخبار الترغيب في هذا الباب: ما رواه الدارمي عن ابن سيرين[(٣)]:

---

(١) في «الجامع» (٥١٣)، وانظر« شرف أصحاب الحديث» له ص٥٣ ـ ٥٤.

(٢) صفحة ٢١٣.

(٣) (٣٥٧)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢٤٨) مطوّلاً، من وجه آخر.

أنه دخل المسجد فرأى حميد بن عبد الرحمن الحِميري في حلقة العلم، ورجلاً آخر يقصُّ، فتردّد مع أيهما يجلس، ثم جلس فنَعَس وأخذته سِنَة، قال: فأتاني آتٍ، فقال: ميَّلتَ ـ أي تردّدت ـ إلى أيهما تجلس؟! إن شئتَ أريتُك مكان جبريل من حميد بن عبد الرحمن.

وإنما أردت من ذِكر هذا الخبر لفتَ النظر إلى زيادة فيه على ما هو مشهور من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً[1]: أن الملائكة ـ عموماً ـ تحفُّ مجالس المتدارسين كتابَ الله تعالى، وهذا من العلم، وعند مسلم[2] من حديث معاوية رضي الله عنه أيضاً: أن الله تعالى يباهي ملائكته ـ عموماً ـ بأهل هذا المجلس، أما أثر الدارمي هذا ففيه أن سيد الملائكة الكرام عليهم السلام جميعاً ـ وهو جبريل ـ يحضر مجلس العلم[3].

وقال الحافظ ابن رجب[4]: «رأى بعضهم في المنام النبيَّ صلى الله عليه وسلم قاعداً في المسجد، والناس حوله، ومالكٌ قائم بين يديه، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مسك، وهو يأخذ منه قُبضة

(١) عند مسلم ٤: ٢٠٧٤ (٣٨)، ثم رواه عقبه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما.

(٢) برقم (٤٠).

(٣) أسند البخاري في «تاريخه الكبير» ٢ (٢٦٩٧) في ترجمة حميد إلى ابن سيرين قوله: «كان حميد أعلم أهل المِصْرَيْن ـ الكوفة والبصرة ـ قبل أن يموت بعشرين سنة» رحمه الله تعالى.

(٤) في «شرح حديث أبي الدرداء» ص ٤٨.

فيدفعها إلى مالك، ومالك ينشرها على الناس، فأُوِّل ذلك لمالكٍ بالعلم واتباع السنة».

تفضيل مجالس العلم على التفرغ للعبادة:

وحكى القاضي عياض في ترجمة الإمام عبد الله بن وهب[1] عن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، عن عمه عبد الله بن وهب، قال أحمد: «كنت مع عمي بالإسكندرية مرابِطاً، فاجتمع الناس عليه يسألونه نشر العلم فقال: هذا بلد عبادة، وقلَّما أمهِّد لنفسي فيه مع شغل الناس، فترك الجلوس لهم في الأوقات التي كان يجلس، وأقبل على العبادة والحراسة، فبعد يومين أتاه إنسان فأخبره: أنه رأى نفسه في المسجد الحرام، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم فيه، وأبو بكر عن يمينه، وعمر عن شماله، وأنت بين يديه، وفي المسجد قناديل تَزْهَر أحسنَ شيء وأشدَّها ضياءً، إذْ خَفَتَ منها قنديل، فانطفأ، فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا عبد الله أَوْقِدْه، فأوقدتَه، ثم آخر كذلك.

ثم أقمت أياماً فرأيت القناديل كلها همَّتْ أن تطفأ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما ترى هذه القناديل! فقال صلى الله عليه وسلم: هذا عمل عبد الله، يريد يطفيها.

فبكىٰ ابن وهب، فقال له الرجل: جئتُ لأبشِّرك، ولو علمت أنه يَغُمُّك لم آتِك، فقال: خير، هذه الرؤيا وُعظتْ بها نفسي، ظننتُ أن

(١) من «ترتيب المدارك» ١: ٥٦٠.

العبادة أفضل من نشر العلم، فترك كثيراً من عمله للعلم، وحبس نفسه لهم يقرؤون عليه ويسألونه».

ثم، إن الله تعالى أكرمه بأنْ جعل خاتمة حياته في مجلس علم، وذلك أنه ألَّف كتاباً سماه «أهوال القيامة» وصار يقرؤه على الناس بعد فراغه منه، كعادة غيره من العلماء، وبينما هو يقرؤه عليهم ذات يوم خَرَّ مغشياً عليه، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد أيام، رحمه الله تعالى[(١)].

ومما يُذكر من أخبار الأحبار، وتقديمهم الاشتغال بفضل العلم على فضل العبادة، ما حكاه القاضي عياض في «ترتيب المدارك»[(٢)] عن رحلة أسد بن الفرات من القيروان إلى المدينة المنورة، ثم إلى بغداد، وأنه لقي الإمام أبا يوسف القاضي، وأن أبا يوسف أوصى جليساً له بأسدٍ وقال له: «ضُمَّه إليك. لعل الله ينفعك به في الدنيا والآخرة». قال أسد: «فخرجت معه إلى داره، فإذا هو محمد بن الحسن، فلزمته حتى كنت من المناظرين من أصحابه.

قال أسد: قلت لمحمد بن الحسن: أنا غريب، والسماع منك قليل! فقال له محمد: اسمعْ مع العراقيين بالنهار، وجِئني بالليل وحدك، تَبيتُ معي، فأُسمِعك!! فكان إذا رآني نَعَسْت نضح وجهي بالماء».

ثم قال: «قال أسد: رغب إليَّ محمد أن أزامله إلى مكة، فكأني كرهت

---

(١) حكاه المزي ١٦: ٢٨٥، وابن حجر في «تهذيبه» ٦: ٧٣، وينظر «ترتيب المدارك» ١: ٥٦٥ ـ ٥٦٦.

(٢) ١: ٦٠٩ ـ ٦١٣.

هذا، فقال لي أصحابه: وَدِدنا لو اشترينا هذا منه بعشرة آلاف درهم! فزاملته، فكنت أُسائله عما أريد، وربما سألته وهو في الصلاة، فيمهِّد بالقراءة: يُعْلِمني أنه يصلي، فأقول: تشغل عني بالصلاة وقد قطعت البلاد إليك!! فيقطع ويجيبني». يريد: إذا فرغ من الصلاة توقف عنها وأجابه، واشتغل معه بالعلم.

ثم ذكر رحلته إلى مصر، إلى ابن القاسم، ليأخذ عنه، قال له ابن القاسم: «كنتُ أختم في اليوم والليلة ختمتين، فقد نزلت لك عن واحدة، رغبةً في إحياء العلم» رحمه الله وجزاه خيراً[١].

وجاء في ترجمة الإمام أبي زرعة الرازي في «طبقات الحنابلة»[٢]: عن عبد الله ابن الإمام أحمد أنه قال: لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثيرَ المذاكرة له، سمعت أبي يوماً يقول: ما صليت غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي، وكانت نوافله في أيام عافيته صلاة ثلاث مئة ركعة، نفلاً مطلقاً، وبعد محنته وضعفه صلاة مئة وخمسين ركعة! رضي الله عنه[٣].

---

(١) وهذه الرحلة مما ينبغي لطالب العلم قراءتها بإمعان في مصادر ترجمة الإمام أسد بن الفرات، المطوَّلة، ومما فيها: الدلالة على أثر الصحبة والملازمة في قوله: «فإذا هو محمد بن الحسن، فلزمته، حتى كنت من المناظرين من أصحابه».

(٢) ٢: ٥٥.

(٣) كما في «الحلية» ٩: ١٨١.

ونحو هذا عن الإمام أبي يوسف القاضي، في «مناقب أبي حنيفة»[١]، في تركه لورده الصباحي، وخروجه إلى مجلس العلم مع الناس.

وفي «المقفّىٰ الكبير»[٢] في ترجمة الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى: «لما ظهر «الشرح الكبير» للرافعي، اشتراه بألف درهم، وصار يصلّي الفرائض فقط، ويشتغل بالمطالعة، إلى أنْ أنهاه».

والقدوة في أخبار هذا الباب ـ الاشتغال بالعلم عن النافلة ـ: ما رواه الخطيب[٣]: أن أبا موسى الأشعري أتى عمر رضي الله عنهما بعد صلاة العشاء الآخرة، فقال عمر: ما جاء بك يا أبا موسى الساعة؟ قال: نتذاكر الفقه، قال: فجلسنا ليلاً طويلاً نتذاكر، ثم قال أبو موسى: الصلاة! فقال عمر: إنا في صلاة، قال: فتذاكرنا حتى كان قريباً من الفجر.

والقدوة الثاني: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقد روى عنه ابن عبد البر[٤] أنه قال: «الدراسة صلاة».

وممن تدارس العلم حتى الفجر من الأئمة المحدثين: وكيع بن الجراح مع عبد الرحمن بن مهدي. وعبد الله بن المبارك مع تلميذه علي ابن الحسن بن شقيق[٥].

---

(١) للموفق المكي ص٤٩٢.

(٢) للمَقْريزي ٦: ٣٧٤.

(٣) في «آداب الفقيه والمتفقه» (٩٥٤).

(٤) في «الجامع» أيضاً (٩٤)، وانظر «شرف أصحاب الحديث» ص٨٣ ـ ٨٥.

(٥) روى ذلك عنهم الخطيب في «الجامع» (١٨٩٩، ١٩٠٤).

ونقل السخاوي في «فتح المغيث»(١) عن الإمام أحمد قوله: «وأيُّ عمل أفضل من طلب العلم؟!».

فإنْ عاق عائق عن ملء الوقت بالعلم، توجهوا إلى العبادة، كما ذكر الذهبي في «السير»(٢) في ترجمة الإمام الحافظ الحجة الناقد النسابة البارع ـ كما وصفه بهذا الذهبي ـ: أبي بكر الحازمي (٥٤٨ ـ ٥٨٤) عن ثمان وثلاثين سنة!! رحمه الله تعالى، وهو صاحب «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار» ما نصه: «كان الحازمي رحمه الله في رباط البديع، فكان يدخل بيته كل ليلة، ويطالع ويكتب إلى طلوع الفجر، فقال البديع للخادم: لا تدفع إليه الليلة بزراً للسراج. لعله يستريح الليلة، قال: فلما جنّ الليل اعتذر إليه الخادم، لأجل انقطاع البزر، فدخل بيته وصفَّ قدميه يصلي ويتلو إلى أن طلع الفجر، وكان الشيخ قد خرج ليعرف خبره، فوجده في الصلاة».

وهذا تطبيق للتوجيه الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ سورة الشرح.

* * * * *

---

(١) ٣: ٢٩٥.

(٢) ٢١: ١٦٧.

[…] عاقه عن الشيء صرفه عنه وشغله عنه فهو عائق
البزر الحب يلقى في الأرض للإنبات

المبحث الثاني

كلمات في فضل العلماء، وأثرهم في الأمة

جاء في فضل العلماء العاملين آيات عدّة، من أشهرها وأجلّها في الدلالة: قول الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٨ ـ ١٩، وفي قراءة الإمام الكسائي: ﴿أن الدين عند الله الإسلام﴾.

والمعنى الإجمالي للآية الكريمة: شهد الله والملائكة وأولوا العلم أن الله تعالى واحد، قائمٌ بالقسط، ويشهدون أن الدين عند الله هو الإسلام.

ولقائل أن يقول: هذه شهادة الله عز وجل، وهذه شهادة ملائكته، وهذه شهادة أولي العلم، فأين شهادة الأنبياء والمرسلين؟ والجواب: قال الإمام البغوي[1]: «قوله تعالى ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾: يعني: الأنبياء عليهم السلام. وقال [صالح] بن كيسان: يعني: المهاجرين والأنصار، وقال مقاتل: علماء مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلَام وأصحابه، وقال السُّدّي والكلبي: يعني: جميع علماء المؤمنين».

قلت: وهذا من اختلاف التنوُّع لا اختلاف التضادّ، فكل هذه الأقوال

---

(١) في تفسيره «معالم التنزيل» ٢: ١٨.

صحيحة، والأَولىٰ أن يقال: إن المراد جميع من ذُكر، والشاهد في الاستدلال بهذه الآية: أن الله ذكر العلماء مع الأنبياء بوصفهم العلمي فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله[1] ـ وقد ذكر هذه الآية ـ: «فلم يُفرِد الأنبياءَ بالذِّكر، بل أدخلهم في مسمَّى العلماء، وكفى بهذا شرفاً للعلماء أنهم يُسمَّون باسمٍ يجتمعون هم والأنبياءُ فيه».

أما أثر العلماء الربانيين على الأمة: فهو كأثر الأنبياء والمرسلين على أممهم، وذلك بحكم وراثتهم لهم، فأثر الوارث من أثر الموروث.

وقد أجمل بعض العلماء، وفصَّل بعضٌ آخرُ أثرَ العلماء العاملين الربانيين على الأمة، ومنهم الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجُرِّي (ت ٣٦٠هـ) رحمه الله في أول كتابه الممتع ـ على وَجَازته ـ «أخلاق العلماء»، أنقله على طوله، قال:

«أما بعد: فإن الله عز وجل، وتقدَّستْ أسماؤه، اختصَّ مِن خلقه مَن أحبَّ فهداهم للإيمان، ثم اختص مِن سائر المؤمنين مَن أحبَّ فتفضل عليهم فعلَّمهم الكتاب الحكمة، وفقَّههم في الدين، وعلَّمهم التأويل، وفضلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمان وأوان، رفعهم بالعلم، وزيَّنهم بالحلم، بهم يُعرف الحلال من الحرام، والحقّ من الباطل، والضارّ من النافع، والحسن من القبيح.

---

(١) في «شرح حديث أبي الدرداء» ص٥٠.

فضلُهم عظيم، وخَطَرهم جزيل، ورثة الأنبياء، وقرة عين الأولياء، الحِيتانُ في البحر لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالستهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العُبّاد، وأعلى درجة من الزهاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يذكِّرون الغافل، ويعلمون الجاهل، لا يُتَوقع لهم بائقة ـ أي: شر ـ، ولا يُخاف منهم غائلة ـ أي: ضرر وفساد ـ، بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المقصِّرون.

جميع الخلق إلى علمهم محتاج، والصحيح على من خالف: بقولهم مِحْجاج، الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة، والمعصية لهم محرَّمة، من أطاعهم رَشَد، ومن عصاهم عَنَد ـ أي: انحرف عن الحق ـ، ما ورد على إمام المسلمين من أمر اشتبه عليه حتى وقف فيه، فَبِقول العلماء يعمل، وعن رأيهم يصدُر، وما ورد على أمراء المسلمين من حُكم لا علم لهم به، فبقولهم يعملون، وعن رأيهم يصدرون، وما أشكل على قضاة المسلمين من حكم فبِقول العلماء يحكمون، وعليه يعوِّلون، فهم سراج العِباد، ومنار البلاد، وقِوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غَيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزَّيغ، مَثَلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدَى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيَّروا، وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا».

ثم ذكر الأدلة على ما قال من الآيات والأحاديث والآثار، ومما ذكره

من الأحاديث بسنده، ما رواه[١] أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن مَثَل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهْتَدَى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطَمَسَتِ النجوم أوشك أن تَضِل الْهُداة».

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم ثلاث فوائد للنجوم في السماء، فقال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ النحل: ١٦، وقال في أول سورة الملك: ٥: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

والعلماء كذلك في أهل الأرض: هداةٌ مرشدون للخلق إلى الحقّ سبحانه وتعالى، وهم زينة لأهل الأرض، وهم كذلك رجومٌ لشياطين الإنس دعاةِ الضلالة، يقومون في وجوههم ويَحولون بينهم وبين عامة المسلمين أن يشوِّشوا عليهم دينهم. ففي الناس: ظلمات الجهل، وظلمات الضلال، ونور العلماء قاشعٌ ماحٍ لكليهما، كما أن نور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان من قبلُ ماحياً لظلمات الكفر وظلمات الجهل، وهذا يشهد لحديث أَنَس ويقويِّه.

وقد ساق الإمام ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» تحت عنوان: تفضيل العلم على العبادة آثاراً كثيرة، ونحوه وأكثرُ منه عند صِنْوِه الخطيب في «آداب الفقيه والمتفقه» بعناوينَ مختلفةٍ متقاربة[٢].

(١) الإمام أحمد ٣: ١٥٧، وفيه ضعف، وله شواهد عند البيهقي في «المدخل» ص٢٧٤.

(٢) ابن عبد البر (٩٠ ـ ١٣٢)، والخطيب (٣٠ ـ ١٥٠) وما بعدها.

ومما علَّقه ابن عبد البر على ابن عباس، وأسنده إليه الخطيب[١]: أن الشياطين قالوا لإبليس: يا سيدَنا ما لنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد، والعالم لا تُصيب منه ـ أي: لا تُضِلُّه ولا تُغويه ـ، والعابد تصيب منه! قال: انطلِقوا، فانطلَقوا إلى عابد قائم يصلي، فقالوا: إنا نريد أن نسألك، فانصرَف ـ أي: قطع عبادته وتوجَّه إليهم ـ، فقال له إبليس: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: لا، فقال ـ إبليس لأصحابه ـ: أترونه كفر في ساعة!.

ثم جاء إلى عالم في حَلْقة يضاحك أصحابه ويحدثهم، فقال ـ إبليس ـ: إنا نريد أن نسألك، فقال: سَلْ، فقال: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: نعم، قال: وكيف؟ قال: يقول لذلك إذا أراد: كن فيكون، قال إبليس ـ لجماعته ـ: أترون ذلك لا يعدو نفسه، وهذا يُفسِد عليَّ عالَماً كثيراً».

وأنا أَفْترِض أن القصة حكاية رمزية ـ ليست أثراً، ويتوجَّبُ عليَّ أن أبحث عن سنده وصحته ـ فإن هذا هو حال المتعبِّدين عن غير علم، وهذا هو حال العلماء، بفضل علمهم تكون النجاة في الدنيا والآخرة.

ضرورة سير العبادة على نهج العلم:

ومما يذكر في أن سلامة الإيمان، وتصحيح العبادة، تكون بالعلم: ما قاله القاضي عياض في «ترتيب المدارك» ترجمة ابن وهب أيضاً، قال ابن

---

(١) ابن عبد البر (١٢٧)، والخطيب (٨٩).

وهب: «كان أول أمري في العبادة قبل طلب العلم، يُولَع بي الشيطان، في ذكر عيسى عليه السلام، وكيف خلقه الله، فشكوت ذلك إلى شيخ، فقال لي: اطلب العلم، فكان سببَ طلبي».

ولا ريب أن الكمال هو في الجمع بين الفضيلتين والحُسْنيين: حُسنَىٰ العلم وحسنى العمل، وهذا هو الصراط المستقيم الذي يدعو به المصلي في كل ركعة من ركعات صلواته: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

فقد جاء تفسير المغضوب عليهم والضالين، في السنة النبوية من حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه، الطويل[1]: بأن المغضوب عليهم هم اليهود، وأن الضالين هم النصارى، ولمَ كان ذلك؟ كان لأن اليهود علِموا أحكام الله تعالى، ولكنهم لم يعملوا ببعضها، وتحيّلوا على بعض آخر، فغضب الله عليهم لعصيانهم المتكرر لأوامره، وأما النصارى فأرادوا الطاعة لكنْ سلكوا سبيلها على غير بصيرة ولا علم يتّبعونه ويعملون بمقتضاه، كمن أراد الوصول إلى مكان ـ كالمسجد ـ مثلاً، وهو لا يعرف طريقه، فمشى على غير بصيرة ولا سؤال، فضلَّ الطريق: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ الحديد: ٢٧.

أما الصراط المستقيم ـ صراطُ الذين أنعم الله عليهم ـ فهو غير صراط

---

(١) عند الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) وقال: حسن غريب، وأحمد ٤: ٣٧٨ (١٩٣٨١)، وابن حبان في «التقاسيم والأنواع» (٤٥٣٣).

المغضوب عليهم: الذين علموا وما عملوا، وغير صراط الضالين: الذي عملوا عن غير علم، بل هو صراط الذين جمعوا بين الحسنيين: حسنى العلم، وحسنى العمل، وذاك هو الصراط المستقيم.

وقد ذكر الحافظ ابن رجب هذا الحديث الشريف، في «شرح حديث أبي الدرداء»[(١)]، وأشار إلى التشبيهات الثلاثة التي ذكرتها، ثم قال: «وقد رُوي عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «أصحابي كالنجوم، فبأيِّهم اقتديتم اهتديتم»[(٢)]، وقد قيل: إن القمر إنما يستفيد نوره من ضوء الشمس، كما أن العالِم نورُه مقتَبَس من نور الرسالة، فلذلك شُبه بالقمر، ولم يشبَّه بالشمس، ولما كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سراجاً منيراً يُشرق نوره على الأرض، كان العلماء ورثتُه وخلفاؤه مشبَّهين بالقمر عند تمام نوره وإضاءته».

وما يزال المسلمون ـ والحمد لله ـ يعيشون في جميع أنحاء عالمهم في ظل طوائفَ من هذا الطِّراز المنير، ببشارةٍ محمدية كريمة متواترة الثبوت والدلالة: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرُّهم من

(١) صفحة ١٤، ثم صفحة ٣٣.

(٢) في هذا الحديث كلام كثير، وله طرق كثيرة، لذلك سوّغ الحافظ الناقد ابن رجب لنفسه ذكره واستنباط هذا المعنىٰ اللطيف منه، وقد أطال العلامة اللكنوي الكلام عليه في «تحفة الأخيار» من ص٥٣ ـ ٦٦، ونقل فيه ص٥٤ عن الصغاني: أنه حسَّنه، وفي ص٦٣ عن «الصواعق» ـ ولعله: الصواعق المحرقة ـ تحسينه أيضاً، أما أنه موضوع فلا.

خَذَلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» أي: «وهم ظاهرون»[١].

أثر العلم الرباني في وجوه حامليه:

ومن شأن الله تعالى الحكيم في خلقه: أن يكسو وجوه عباده الصادقين المخلصين الربانيين النور والجلالة، والخَشْعة والمهابة، والأنس والطمأنينة، فتُضفي وتَفيض بهذه المعاني على مُجالسيها والناظرين إليها، كما تكون (واحاتٍ) أمن ولطف، وسعادة وبركة، لمن وقع في شِراك الهم والكربة، كما يكونون مصدر خير وهَدْيٍ ناطق وصامت للمسترشدين، يعلِّمون الناس بمقالهم وحالهم، وهم فوق قول القائل:

إذا سكتوا رأيت لهم جمالاً وإن نطقوا سمعت لهم عقولا

ومن هذا المنطلق: فإن الإمام الحجة يحيى بن يحيى التميمي النيسابوري (ت٢٢٦) رحمه الله، أقام سنةً أمام الإمام مالك رحمه الله، بعد فراغه من سماع «الموطأ» عليه، «مستفيداً لشمائله، لأنها شمائل الصحابة والتابعين»[٢].

وقد عبّر عن هذه المعاني الكريمة، بعبارات صادقة عالية، فضيلة شيخنا[٣] فقال تغمده الله برحماته: «إن النظر إلى الذات القدوة، أفعلُ في النفس من السماع عنها، وأبقى لآثار الخير في ناظرها، وقد كان

---

(١) اللفظ الأول: رواية ثوبان عند مسلم ٣: ١٥٢٣ (١٧٠)، واللفظ الثاني: رواية المغيرة بن شعبة عند البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٧١).

(٢) «ترتيب المدارك» ١: ٥٤٤، وانظر الخبر بتمامه فيما يأتي ص٢١٢.

(٣) في تعليقه، بل في شرحه لـ «رسالة المسترشدين» ص١٠٢.

لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الحظُّ الأوفر، لمجالستهم له صلى الله عليه وسلم، ومشاهدتهم إياه، وقربهم منه، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، بعد سيد الناس عليه الصلاة والسلام.

«ورؤية الرجل الصالِح القدوةِ، إنما تذكِّر بالله، لما يُرى عليه من النور والإشراق، والأنس والطمأنينة، والمحبة والسكينة، في سَمْته وهديه وخشعته، في نطقه وصمته، وإطراقه وحركته وسكونه، وكل شؤونه، فلا ينظره ناظر إلا كان نظره إليه مذكراً بالله، وكانت صورته موجِّهة له للإقبال على الله، أولئك الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله».

ثم نقل كلاماً طويلاً للحكيم الترمذي رحمه الله، وعقَّب عليه بقوله: «وقد كان هذا النوع الكريم في السلف منتشراً وكثيراً، وكان الناس يقصدون لقاءه للانتفاع بالنظر إليه، إذ كانت رؤيته وحدها تنير القلب، وتحرك الصلاح في النفس، وتحبِّب بالدين، وتذكِّر بالله تعالى». وانظر تمام كلامه هناك جزاه الله خيراً وأعلى مقامه لديه.

وما على المسلم إلا أن يكون دائم الصلة بهم، للاقتباس من هذا النور والميراث النبوي.

* * * * *

الباب الثاني

المعالم الإرشادية في طريق طالب العلم

تمهيد : في سرد المعالم الأساسية لطالب العلم

وقفت على أقوالِ ستةٍ من الأئمة، فيها تعداد الأركان الأساسية لطالب العلم، ويلاحظ فيها أمر واحد، هو أنه كلما تقدم الزمن كلما زادوا في المقوِّمات والأركان، وأنا أنقلها وأُرتِّبها حسب وَفَيَات أصحابها، مع ما يتيسر من التعليق على بعضها.

١ ـ الإمام محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩) رحمه الله تعالىٰ: أسند إليه ابن أبي العوام[١] قوله: «عِلْمنا هذا لا يصلح إلا بثلاث خصال: أن يكون الرجل مشتهياً له، ذكياً، مكْفِيّاً».

٢ ـ الإمام الشافعي (ت ٢٠٤) رحمه الله تعالى: روى الخطيب[٢] عنه قوله: «يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال: **أولها** : طول العمر، **والثانية** : سَعَة اليد، **والثالثة** : الذكاء»، وعلَّق عليه الخطيب رحمه الله بقوله: «قلت: أما طول العمر: فإنه قصد به دوامَ الملازمة للعلم، وأراد بسعة اليد: أن لا يشتغل بالاحترافِ، وطلبِ التكسُّب، فإذا استعمل القناعة أغنتْه عن كثير من ذلك»،

---

(١) في «المناقب» (٨٥٩).

(٢) في «آداب الفقيه والمتفقه» ٢ : ١٨٧ (٨٣٧).

ثم قال بعد صفحة: «وإذا رزقه الله الذكاء: فهو أمارة سعادته، وسرعةُ بلوغه إلى بغيته». والذكاء: هو حدة الفهم.

ولقد أكرم الله عز وجل الإمام الشافعي بهذه الخصال وغيرها من المهمات لبلوغ الإمامة، فكانتْ ملازمتُه للعلم عوضاً له عن طول العمر، فلم يُعَمَّر، بل عاش - كما هو مشهور - أربعاً وخمسين سنة، وهذا ما حمل الخطيبَ على تفسيره طولَ العمر بدوام الملازمة، ولم يَعرف الاحتراف والتكسب بل استعمل القناعة، وكان من الذكاء بمحلٍّ ميَّزه الله به عن جُلِّ أقرانه ومعاصريه، رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

ثم أسند الخطيب[1] إلى الإمام عبد الله بن شُبْرُمة، أحدِ فقهاء التابعين الأثبات: أن رجلاً سأله عن مسألة، ففسَّرها له، فقال له: لم أفهم، فأعاد، فقال: لم أفهم، فقال له ابن شبرمة: «إن كنت لم تفهم لأنك لم تفهم: فستفهم بالإعادة، وإن كنت لم تفهم لأنك لا تفهم: فهذا داء لا دواء له».

فأشار ابن شُبْرمة رحمه الله بقوله للرجل: «فستفهم بالإعادة» إلى أن الذكاء وَهْبيّ يولد مع الإنسان، أو كسبيّ يتولّد من المزاولة والمدارسة، فإذا ما اجتمعا في شخص ولّدا العجائب، كما كان من أئمة الإسلام سلفاً وخلفاً، والحمد لله.

٣ - وقال أبو هلال العسكري (نحو ٤٠٠) رحمه الله تعالى[2]: «قال

(١) في «آداب الفقيه والمتفقه» (٨٤٢).

(٢) في «الحثّ على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» ص٤٧.

بعض الأوائل: لا يتمّ العلم إلا بستّة أشياء:

١ـ ذهن ثاقب. ٢ـ وزمان طويل.

٣ـ وكفاية ـ من المال ـ. ٤ـ وعمل كثير ـ أي: اشتغال كثير في تحصيله ـ.

٥ـ ومعلِّم حاذق. ٦ـ وشهوة» أي: محبة شديدة للعلم.

وشَرَحها باختصار مفيد.

ويبدو أن وصف «حاذق» ينبغي أن يكون للمعلِّم: في علمه، وفي تعليمه، أعني: أن يكون مختصاً في المادة العلمية التي يدرّسها، وأن يكون ماهراً في تعليم العلم، وحسن تلقينه للطلبة.

٤ ـ أما الإمام الماوردي (ت ٤٣٠) رحمه الله فقال[١]: «الشروط التي يتوفّر بها علم الطالب، وينتهي معها كمال الراغب ـ مع ما يلاحَظ به من التوفيق، ويُمدُّ به من المعونة ـ: فتسعة شروط»، وهذا تعدادها سرداً:

١ـ العقل. ٢ـ الفطنة.

٣ـ الذكاء. ٤ـ الشهوة إلى العلم (الحرص).

٥ـ الاكتفاء بمال يغنيه عن الطلب. ٦ـ التفرغ من الأعمال.

٧ـ التفرُّغ من الهموم والمكدِّرات. ٨ـ طول العمر.

٩ـ أستاذ سَمْح بعلمه.

---

(١) في كتابه «أدب الدنيا والدين» ص١١١.

٥ ـ وأسند الحافظ ابن النجار[١] إلى إمام الحرمين (ت ٤٧٨) رحمهما الله تعالى قوله[٢]:

أَصِخْ: لن تنال العلم إلا بستة سأُنبيك عن تفصيلها ببيان:
ذكاءٍ، وحرصٍ، وافتقارٍ، وغربةٍ وتلقينِ أستاذٍ، وطولِ زمان

٦ ـ أما الإمام ابن العربي المالكي (ت ٥٤٣) رحمه الله فقال[٣]: «شروط التعلّم ووظائفه تنيف على المئتين، لكن الأمهات التي ترجع إليها البنات سبعة شروط»، وتعدادها سرداً:

١ـ الإخلاص.
٢ـ التواضع للعلم.
٣ـ التواضع للمعلم.
٤ـ طاعته لإشارة معلمه.
٥ـ التدرج في التعلم.
٦ـ المذاكرة بعلمه.
٧ـ العمل بالعلم.

وثمة أمور أخرى مساعدة، ذكرها السخاوي (ت٩٠٢) رحمه الله[٤]

(١) في «ذيل تاريخ بغداد» ١: ٨٩.

(٢) ونسبهما إليه أيضاً التاج السبكي في ترجمته له في «الطبقات» ٥: ٢٠٨، وليسا للإمام الشافعي رحمه الله ـ كما اشتهر ـ وإن ذُكرا في «ديوانه»، فالشعر المنحول لعلي بن أبي طالب والشافعي رضي الله عنهما أكثر من الصحيح عنهما. ومعنى «أصِخْ»: أي: استمعْ وأَصغِ، واشتهر مطلع البيتين بلفظ: أخي...

(٣) في «قانون التأويل» ص٦٣٦.

(٤) في «الجواهر الدرر» ١: ١٦١ـ١٧٠.

فقال: سرعة القراءة الحسنة، وسرعة الكتابة الحسنة، والصحبة الطيبة من طلبة العلم، وعدم التردد إلى الكبراء، واستثمار الوقت، وينظر شرحها هناك.

* * * * *

المَعْلَم الأول

الإخلاص لله في طلب العلم

ابتدأ الإمام الخطيب رحمه الله تعالى جزأه «اقتضاء العلمِ العملَ» بعد البسملة والحمدلة والصلاة على سيدنا رسول الله بقوله: «إني مُوصِيك - يا طالب العلم - بإخلاص النية في طلبه، وإجهادِ النفس على العمل بموجَبه، فإن العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يعدُّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً». وبهذا الركن في حياة كل مسلم - وطالب العلم من بابِ أولى - بدأ ابن الصلاح حديثه عن آداب طالب الحديث، كما سيأتي، وتراه أول المذكورات السبعة في كلام ابن العربي.

وروىٰ مسلم[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه ذكر ثلاثة أصناف من الناس، هم أول من يُقضىٰ عليهم يوم القيامة، ثانيهم: «رجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرَّفه نِعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: نقلتُ العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلّمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار».

ونحوه عند الترمذي عن أبي هريرة أيضاً، وبقصة طويلة، وينظر

---

(١) في «صحيحه» ٣: ١٥١٣ (١٥٢)، والترمذي (٢٣٨٢).

شرحهما فيما كتبتُه تحت الحديث الرابع «من صحاح الأحاديث القدسية».

ونقلتُ هناك قصة من روائع قِصص أهل الإخلاص، نقلتها عن «عيون الأخبار» لابن قتيبة رحمه الله[1]، قال: «حاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً، وكان في ذلك الحِصن نَقْب ـ أي: فتحة في حائطه ـ فندب الناسَ إلى دخوله، فما دخله أحد، فجاء رجل من عُرْض الجيش ـ أي: لا يُعرف ـ فدخله ففتح الله عليهم الحصن. فنادىٰ مسلمة: أين صاحب النَّقب؟ فما جاء أحد، فنادىٰ: إني قد أمرتُ الآذن بإدخاله ساعةَ يأتي، فعزمت عليه إلا جاء، فجاء رجل إلى الآذِن، فقال: استأذنْ لي على الأمير، فقال له: أنت صاحب النَّقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتىٰ الآذنُ إلى مسلمة، فأخبره عنه، فأذن له، فقال الرجل لمسلمة: إن صاحب النَّقب يأخذ عليكم ثلاثاً: أن لا تسوِّدوا اسمه ـ أي: لا تكتبوا اسمه بالمداد الأسود ـ في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء ـ أي: من المال ـ ولا تسألوه: ممن هو؟ قال مسلمة: فذاك له، قال الرجل: أنا هو.

فكان مسلمة بعد هذه الحادثة لا يصلي صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب».

والإخلاص: قال في تعريفه علماء السلوك والطريق إلى الله أقوالاً كثيرة، ومنهم الإمام الغزالي في «الإحياء»، والقشيري في «الرسالة»[2]، ومما ذكراه: قولُ أبي يعقوب السُّوسي: «الإخلاص: فَقْد الإخلاص»،

---

(١) «الإحياء» ١ : ١٧٢.

(٢) ٤ : ٣٨١، و«الرسالة» ٣: ١٣٣ بشرح القاضي زكريا.

أي: أن لا ترىٰ نفسك مخلِصاً، وآخرها: «الإخلاص: دوام المراقبة، ونسيان الحظوظ كلها».

ثم ذكر الغزالي حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه[(١)] قال: قلت: يا رسول الله، حدِّثني بأمر أعتصم به، قال: «قل: ربيَ الله، ثم استقم»، وقال الغزالي تمهيداً وشرحاً لهذا الحديث: «وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين ﷺ»، وشرَحه بقوله: «أي: لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد إلا ربك، وتستقيمُ في عبادته كما أُمرت، وهذا إشارة إلى قطع ما سوىٰ الله عن مجرىٰ النظر، وهو الإخلاص حقاً».

وكذلك فَعَل الإمام ابن الصلاح ـ ومَن بعده ـ فإنه ابتدأ معرفة آداب طالب الحديث: النوع الثامن والعشرين من «مقدمته» بقوله: «أول ما عليه: تحقيقُ الإخلاص، والحذرُ من أن يتخذه وُصْلَةً إلى شيء من الأغراض الدنيوية».

وذَكَر ـ أي: ابن الصلاح ـ كلمةَ الإمامِ حماد بن سلمة رحمه الله تعالى: «من طلب الحديث لغير الله مُكِر به»[(٢)]، وذكر كلمةَ الإمامِ سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «ما أعلم عملاً هو أفضل من طلب الحديث، لمن أراد اللهَ به»[(٣)].

---

(١) الذي رواه مسلم ١: ٦٥ (٦٢)، والترمذي (٢٤١٠)، والنسائي (١١٤٩٠)، وابن ماجه (٣٩٧٢)، واللفظ له وللترمذي.

(٢) وهي في «الجامع» لابن عبد البر (١١٥٣)، و«جامع» الخطيب (٢٠).

(٣) وهي قريبة من لفظه الذي في «شرف أصحاب الحديث» (١٧٦).

وذِكْر «الحديث» في كلمة حماد بن سلمة والثوريّ جاءت ـ والله أعلم ـ على أن علم الحديث هو العلمُ الشائع الذائع آنذاك، ولا يَعنيان أبداً أن: من طلب علم التفسير ـ مثلاً ـ لغير الله جاز له ولا يُمكر به! بل معنى قولهما وقولِ غيرهما: مَن طلب العلم الشرعيَّ ـ أيَّ فنّ مِن فنونه ـ لغير الله فإن الله تعالى يمكر به، فلا يوفّقه فيه، بل يخذله ويوقعه في خسران.

وهذا في حق من يمحِّض نيته فيه لغير الله، أيْ: طَلَب العلمَ لأمر معيَّن يريده من الدنيا والمفاسد، وذلك كما روى جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «لا تَعَلَّموا العلم لتُباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السفهاء، ولا تَخَيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنارَ النارَ»، وفيه كلام لا يضر[1].

الترخص في عدم استحضار النية أول الأمر:

أما من طلب العلم أولَ طلبه، ولم يستحضر فيه نية صالحة ـ لله تعالى ـ ولا نية فاسدة لغرض دنيوي فاسد، وتداركَ هذا الطالبُ أمره بعدُ، فَقَمِنٌ أن يتداركه الله تعالى بلطفه.

فقد قال ابن عبد البر: باب الخبر عن العلم أنه يقود إلى الله تعالى على

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤)، وابن حبان (٢٨١٠) من «التقاسيم والأنواع»، والحاكم ١: ٨٦ (٢٩٠) وصححه، وفي الباب أحاديث مرفوعة، وآثار عن السلف موقوفة، تنظر في المصادر الثلاثة المذكورة، وفي «الترغيب» للمنذري ١: ١١٥، و«جامع» ابن عبد البر ١: ٦٤٨ باب: ذم الفاجر من العلماء، وذم طلب العلم للمباهاة والدنيا، و«جامع» الخطيب ١: ١٢٣: باب النية في طلب الحديث، ويُنظر أيضا شرح الحديث (٨٦٠١، ٨٨٤٠) من «فيض القدير» للمناوي.

كل حال، وروى عن حبيب بن أبي ثابت (١١٩هـ) أحد أجلاء التابعين رحمه الله تعالى أنه قال(١): «طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية، ثم جاءت النية بعدُ».

وساق قبله من عدة طرق إلى الإمام مَعْمر بن راشد البصري اليمني (١٥٤هـ) رحمه الله تعالى مقولته المشهورة: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله»، قال الإمام البدر ابن جماعة رحمه الله في كتابه النافع الماتع «تذكرة السامع والمتكلم»(٢) وهو يتحدث عن آداب العالم مع طلبته: «الثاني: أن لا يمتنع من تعليم الطالب، لعدم خلوص نيته، فإن حسن النية مرجوٌّ له ببركة العلم، قال بعض السلف: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أنْ يكون إلا لله، قيل: معناه: فكان عاقبته أنْ صار لله، ولأن إخلاص النية لو شُرِط في تعليم المبتدئين فيه، مع عُسْره على كثير منهم: لأَدَّى ذلك إلى تفويت العلم كثيراً من الناس».

والواقع الذي عليه جُلُّ طلبة العلم من زمن غير قريب: أن الواحد منهم يُوجَّه إلى طلب العلم من قِبَل والديه أو أحدهما، وليس له دراية في النية، وأهميتها، وإخلاصها لله تعالى في طلب العلم، فحينئذ تكون المسئولية ملقاةً على عاتق والديه، فإن لم تكن من والديه فليكن التوجيهُ ولفتُ النظر إليها من الشيخ.

ولهذا قال الإمام ابن جماعة رحمه الله في تمام كلامه: «لكن الشيخ

---

(١) «جامع بيان العلم» (١٣٨٠).

(٢) صفحة ٤٧.

يحرِّض المبتدئ على حسن النية بتدرُّجٍ، قولاً وفعلاً، ويعلِّمه بعد أُنْسه به: أنه ببركة حسن النية، ينال الرتبة العلية من العلم والعمل، وفيض اللطائف، وأنواع الحِكَم، وتنوير القلب، وانشراح الصدر، وتوفيق العزم، وإصابة الحق، وحسن الحال، والتسديد في المقال، وعلوّ الدرجات يوم القيامة».

قال الفاضل العَلْمَويُّ في «المعيد في أدب المفيد والمستفيد»[1]: «لا ينبغي أن يمتنع من تعليم أحد لكونه غيرَ صحيح النية، فالامتناع من تعليمهم يؤدي إلى تفويت كثير من العلم، مع أنه يُرجى ببركة العلم تصحيحُها إذا أَنِس بالعلم، وقد قالوا: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله، معناه: كانت عاقبته أنْ صار لله».

أهمية الإخلاص في نجاح الأعمال:

هذا، وإن موقعَ الإخلاص من نجاح العمل موقعُ الروح من الجسد، فكما أنه لا فائدة من جسد لا روح فيه، فكذلك لا نجاح لعمل لا إخلاص معه، وإن الإكسير الذي خسره المسلمون في أعمالهم، هو الإخلاص لله تعالى فيها، وخير شاهدٍ وتَرجمانٍ على صحة هذه الدعوى هو تاريخ المسلمين على مدى القرون وطولها، فكم أبدعوا من علوم ومعارف وحضارات، وكم أقاموا من دول وفتوحات، مع عَدَد وعُدَّة، لا تُذكر في جنب ما لهم من عَدَد وعُدَّة في هذه الأيام المتأخرة، لكنهم في تقهقرٍ واندحار في كل المجالات التي أبدع فيها أسلافهم.

(١) صفحة ٤٥.

وكم وكم من إمام مضى، قدَّم إلى العلم والعلماء إنتاجاً ضخماً يعجز عن إخراجه مجامع علمية، مع أن بُعْد ما بيننا وبينهم من حيث الوسائلُ والأسبابُ، أكبرُ من البُعْد الزماني بيننا وبينهم! لكنه سرُّ الإخلاص والهِمَم العلية! رضي الله عنهم وأرضاهم.

هذا سوى ما دُفن معهم من علوم لا تدخل تحت الحصر. قال ابن فرحون في ترجمة الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الشارِمْساحي (٥٨٩ ـ ٦٦٩) رحمه الله تعالى[1]: «ولي تدريس المدرسة المستنصِرية، وكان أول من أنشأها الخليفة ـ المستنصِر بالله ـ، وأمر الخليفةُ أن يحضر عنده جميعُ المدرسين بجميع المدارس ببغداد، وجميعُ أرباب الدولة، وحجّاب الدواوين، فحضروا...، وألقى عليه بعض العلماء مسألة بيوع الآجال، فقال: أذكر فيها ثمانين ألفَ وجهٍ!! فاستغرب فقهاء بغداد من ذلك، فشرع يسردها عليهم، إلى أن انتهى إلى مئتي وجه، فاستطالوها، وأضربوا عن سماعها، واعترفوا بفضل الشيخ وسعة علمه». والحديث ذو شجون وفنون.

---

(١) في «الديباج المُذْهَب» ١: ٣٨٧، وانظر كلام الآلوسي رحمه الله في «روح المعاني» ١: ٢٤٥، عما في البسملة من وجوه المعاني والأسرار، فإنه ضرب من الخيال.

وهناك ما هو مخطوط ومطبوع، لم يُدفن معهم، ومنه كلام الإمام العبقري إسماعيل المَقْري الشافعي المتوفى سنة ٨٣٧ رحمه الله تعالى، الذي تكلّم على حكم استعمال الماء المشمَّس من خمسة ملايين وجه، ومئة وأربعة وثمانين ألف وجه!!، وأشدُّ من هذا عبقريةً وغرابةً أن مساحة كلامه لا تزيد على ستين سطراً مطبوعاً!!.

المَعْلَم الثاني

معرفة طالب العلم موقعه، ومهمته

إن معرفة طالب العلم أهميةَ ما يطلب، وشرفَه ورفعةَ مقامه: لَمن أهم الواجبات الأساسية التي ينبني عليها منهجه، وإن هذه المعرفة هيَ التُّربة التي يزرع فيها غِراسه، ليجنيَ منها الثمار اليانعة: له، وللإسلام، والمسلمين في مستقبله.

فهما أمران، وعلى طالب العلم أنْ يَقدُر لهما قدرهما:

أولهما : أن يَقْدُر شرف العلم الذي قدَّمتُ قطرةً من بحر فضله وعظيم مكانته في الإسلام، فعليه أن يكون على ذُكْر منه، وأن يكون على يقين أن ما قدَّمتُه إنما هو قطرة من بحر، فيزدادَ إعظاماً لشرف العلم، ويجب عليه بعد أن يُدرك هذا الشرف العظيم: أن يبذل كل غالٍ ورخيص لديه، ليحصل على هذا الشرف بجدارة واستحقاق، فقد اختاره الله تعالى للعلم من بين الملايين من الأمة المحمدية.

روى ابن ماجه، وأحمد، وابن حبان[١] عن أبي عِنَبة الخولاني رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يزال الله يغرس في

(١) ابن ماجه (٨)، وأحمد ٤: ٢٠٠، وابن حبان (٤٦١٠) من «التقاسيم والأنواع».

هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته»، فما غَرَسك الله عز وجل إلا وقد اختارك.

ثانيهما: أن يُدرك شرف مهمته المستقبلية، فهو في المستقبل القريب - إن شاء الله - إمامٌ بالمسلمين في صلاتهم لله تعالى، وخطيبٌ عليهم، ومُفْتٍ لهم، مبيِّنٌ لهم شرع الله في أمورهم الدنيوية والدينية.

وعلى طالب العلم أن يفخر بفضل الله عليه، ولا يرىٰ نفسه ضعيفاً، ويرىٰ زميله في الدراسة الابتدائية - مثلاً - قوياً، وقد صار طبيباً، والآخر مهندساً، والثالث رجل أعمال، وبقي هو طالبَ علم، وإمامَ مسجد، وخطيب جمعة!! عليه أن يدرك فضل الله عليه: أنَّ أمره ونهيه وتحليله وتحريمه، من أمر الله العظيم ونهيه، ومن تحليل الله وتحريمه، يقول بقول الله، ويؤيده الله على قوله، فأيُّ شرف أعظم من هذا الشرف! إنه في إمامة المسجد الوسيطُ بين العباد وربهم سبحانه وتعالىٰ، صلاتهم بصلاته، وصلتُهم بالله بِصِلته، هذه هي المكانة المرموقة الحقَّة لطالب العلم إذا عرف حقَّ الله وحقَّ العلم.

إن الله تعالىٰ أنار للناس عامةً الطريق إلى الإيمان به، والعمل بشرعه، في كتابه الكريم، ولما كان لابدّ لهذا الكتاب الكريم من مبلغ وشارح له: أرسل رسوله محمداً ﷺ مبلغاً وداعياً وشارحاً، ولكن محمداً ﷺ ممن تنطبق عليه - من هذه الناحية - ما ينطبق على البشر جميعهم: الحياة ثم الموت، فكان لابدّ لسيدنا رسول الله ﷺ مِن خلفاء عنه ووراثاً له، فاقتضت حكمة الله تعالىٰ أن يكونوا هم العلماء، وعبَّر ﷺ عن هذا المعنىٰ بقوله الكريم: «إن العلماء ورثة الأنبياء»، وليس فوق هذه الرتبة إلا رتبةٌ

معها أو تسبقها، تلك هي رتبة الخلافة عن الله عز وجل في تبليغ شرعه إلى الناس، فكان هذا الخليفةُ هو طالبَ العلم اليوم، وعالمَ الغد، ومفتيَ المستقبل.

طالب العلم خليفة عن الله تعالى:

وقد قال الإمام ابن القيم كلاماً نفيساً أنقله بطوله، قال رحمه الله(١):

«ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلمَ بما يبلّغ، والصدقَ فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق، فيكون عالماً بما يبلّغ، صادقاً فيه، ويكون - مع ذلك - حسن الطريقة، مرضيّ السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله، وإذا كان منصبُ التوقيع عن الملوك بالمحلّ الذي لا ينكر فضله، ولا يُجهل قدره، وهو من أعلىٰ المراتب السنيَّات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات؟!.

«فحقيق بمن أُقيم في هذا المنصب أن يُعِدَّ له عُدّته، وأن يتأهب له أُهبته، وأن يعلم قدر المُقام الذي أُقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به، فإن الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه رب الأرباب فقال: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ النساء: ١٢٧، وكفىٰ بما تولاه الله تعالىٰ بنفسه شرفاً وجلالة إذ يقول في كتابه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي

(١) في مقدمة كتابه «إعلام الموقعين» ١ : ١٠.

ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ النساء: ١٧٦، ولْيعلمِ المفتي عمن ينوب في فتواه، وليوقنْ أنه مسئول غداً، وموقوف بين يدي الله.

«وأولُ من قام بهذا المنصب الشريف: سيدُ المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين عبد الله ورسوله وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده». انتهىٰ كلامه.

فنبَّه رحمه الله إلى أن العالم المفتي إنما هو خليفة عن الله عز وجل الذي تولّىٰ الإفتاء في بعض مسائل الأمة التي وُجِّهت إلى النبي ﷺ، ومن هذا الملحظ سمَّى رحمه الله كتابه المذكور بهذا الاسم الخطير: «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، أي: إن المفتي حينما يُصدر فتواه، ويمهر ختامها بتوقيعه، فإنما يوقِّع عن رب العالمين، رب الأرض والسموات، بأن ما أقوله لكم وأكتبه، هو قول الله تعالىٰ، وبالتالي هو قول رسوله ﷺ أيضاً.

وهذه المرتبة العظيمة التي لا مرتبة تعدِلها، ينبغي لصاحبها أن يتصف بأعظم الصفات الكاملة، وقد أشار رحمه الله إلى بعضها.

إن هذه المرتبة تستحق من طالبها أن يبذل للوصول إلى أدنىٰ مراتبها أعلىٰ وأغلى ما عنده، إنها مرتبةُ الخلافةِ عن الله، والوراثةِ لرسول الله عليه الصلاة والسلام، إنها حقاً أشرف المراتب وأعلىٰ المقامات.

وإذا كان طالب اليوم، وعالم الغد، ومفتي المستقبل: يملك التوقيع عن الله ملك الملوك وجبار السموات والأرض، فما هو مدىٰ الرفعة التي رفعه الله إليها؟! وإلى أيّ مدىٰ يتوجب عليه أن يصون هذا الشرف الرفيع، ويحافظ عليه بروحه ودمه!!.

إنه حقاً يجب على طالب العلم أن يعرف شرف العلم الذي يطلبه، وشرف المكانة التي بوأه الله إياها.

وأيضاً: إن العلم عظيم وشريف، فمن أعطاه حقه من التعظيم والتكريم، كرَّمه العلمُ ورفعه، ومن قصّر في حقه فإنه هو المُهان لا العلم، العلم يبقىٰ عظيماً بتعظيم الله له، لأن العلم الذي نحن بصدد الحديث عنه متمثِّل في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، والله عز وجل أجلُّ من أن يترك كتابه وسنة رسوله عبثاً للمفسدين في الأرض.

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعَظَّما
ولكن أهانوه فهانوا ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتى تَجَهَّما[1]

* * * * *

(١) البيتان من قصيدة غالية للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (٣٩٢) رحمه الله تعالى، ذكر بعضها الخطيب بسنده في «الجامع» (٨٦٢)، وذكرها كلها بسنده أيضاً الإمام التاج السبكي في «معيد النعم» تحت (المثال السادس والأربعون) وقال بعدها: «صدق هذا القائل، لو عظموا العلم لعَظَّمهم، وأنا أقرأ قوله: لعَظّما: بفتح العين، فإن العلم إذا عُظِّم يُعَظِّم، وهو في نفسه عظيم، ولهذا أقول: ولكن أهانوه فهانوا، ولكن الرواية: فهانَ، ولعُظِّم، بضم العين، والأحسن ما أشرت إليه».

المَعْلَم الثالث

أهمية الذكاء في طريق العلم

اتفقت كلمات الأئمة على ضرورة توفّر الذكاء، في طالب العلم: الشافعي، والعسكري، والماوردي، وإمام الحرمين، وتقدمت كلماتهم. وسماه العسكري: الذهن الثاقب، وهو الفطنة والذكِاء، وثُقوب الذهن: شدة الفَطانة.

أما الماوردي ففرَّق بينهما، فذكر: العقل، والفطانة، والذكاء.

وأرى ـ والله أعلم ـ أن من اقتصر على الذكاء: فإنما أراد هذه المعاني كلَّها: العقل، والفطانة، وسرعة الخاطر والبديهة، وتوقّد الذهن وحضوره، وجودة القريحة والاستنباط، وما إلى ذلك من ألفاظ مختلفة، ومعانٍ متقاربة.

والذكاء : سرعة الفطنة، وحدّة الفهم، وهذه المادة اللغوية، كما قال ابن فارس[(١)] تدلّ على حدّة في الشيء.

والذكاء ذكاءان: وَهْبي خِلْقي يولد عليه بعض الناس، وذكاء كَسْبي، يتزايد مع عُمُر الإنسان وخَوْضه غمارَ الحياة وتجاربها، وكما أن الذكاء الوهبي يختلف من قويّ فأقوى، فكذلك الذكاء الكَسْبي يختلف في تزايده

---

(١) في «مقاييس اللغة» ٢: ٣٥٧.

من قوي إلى أقوى، حسب صِلات كل فرد بالآخرين، وعمله الدنيوي، وقد يجتمعان معاً في شخص واحد، يولد ذكياً، ويزداد ذكاؤه بحكم عمله الدنيوي، من تجارات واسعة (رجال أعمال)، أو مهنة القضاء والمحاماة، ونحو ذلك، مما يتعرف به يوماً بعد يوم على واقع الناس المتشابك، فيكون كما قال ابن الرومي:

ألـمـعـيٌّ يـرى بـأوّل رأيٍ ... آخرَ الأمرين من وراء المَغِيب

ومن واجبات الشيخ وهو يعايش طلابه عاماً بعد عام: أن يتخيَّر منهم النبهاء النجباء، ويركِّز عليهم، ويتعهَّدهم ويتفقّد مصالحهم، ويسعى لكفايتهم، ليتفرَّغوا للعلم، فلا يَضيعوا، فيتمُّ استثمار مواهبهم بإذن الله تعالى.

كما أن من واجبات الشيخ: أن يصبر على الصنف الثاني ذوي الذكاء والفهم الكسبي، فيستفيدَ منهم فلا يَضيعوا، وقد أثبتت الأيام أن من صبر عليه أستاذه بلغ درجة عالية جداً في العلم، ومنهم من كان إماماً.

ومن أخبار من صبر عليه أستاذه فبلغ مبلغاً عالياً في العلم: ما جاء في «طبقات الشافعية»[1] في ترجمة الإمام الربيع بن سليمان المرادي راوية الإمام الشافعي، قال السبكي: «قال القفال في «فتاويه»: كان الربيع بطيء الفهم، فكرَّر الشافعي عليه مسألة واحدة أربعين مرة، فلم يفهم، وقام من المجلس حياءً، فدعاه الشافعي في خلوة، وكرَّر عليه حتى فهم»! ورضي الله عن الإمام الشافعي: في صبره وتحمّله، وفي ذوقه وأدبه وتلطُّفه مع من

(١) للسبكي ٢: ١٣٤.

يرجو خيره.

وقد جاء قبل هذا الخبر بسطرين: أن الشافعي قال له: ما أحبَّك إليَّ!!، وقال: ما خدمني أحد قطُّ ما خدمني الربيع بن سليمان. وقال له يوماً: يا ربيع لو أمكنني أن أُطعمك العلم لأطعمتك. فليكن الإمام الشافعي قدوة كل أستاذ ومعلم.

* * * * *

المَعْلَم الرابع

الحرص على الوقت وتحصيل العلم

تعريف الحرص(*): قال الراغب في «مفرداته»: الحرص: فَرْط الشَّرَه، وفرط الإرادة. أي: هو شدة الإرادةِ للشيء والرغبة فيه. فليس هو الرغبةَ فقط، بل هو شدة الرغبة فيه.

والحرص يكون:

أ ـ على الوقت.

ب ـ ويكون على تحصيل العلم من حيثُ العموم.

ج ـ ويكون على اقتناص الفائدة أن لا تفوته، ولا يكون هذا إلا بعلو الهمة في طلب العلم، وتحرُّق شديد يأخذ على صاحبه لبَّه وفكره، ليلَ نهارَ، حتى يصل به الحال إلى ما وصل إليه (عقلاء المجانين):

مجـانيـنُ إلا أن سـرَّ جنـونـهم ... خفيٌّ على أبوابه يسجدُ العقل[1]

(*) الحديث عن الحرص بفروعه الثلاثة يتصل اتصالاً وثيقاً بالحديث عن المعلم الخامس: علوّ الهمة في طلب العلم، فتنظر هناك غُرر من أخبارهم في هذا المجال.

(١) ومن هؤلاء:

الإمام أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم (٢٤٧ ـ ٣٤٦) رحمه الله، نقل الذهبي في ترجمته من «السير» ١٥: ٤٥٨ عن الحاكم في «تاريخ نيسابور» قال:

=

١) حماد نهر نافس

آ ـ أما الحرص على الوقت[1]: فعلى طالب العلم ـ بل على كل

«حضرت أبا العباس الأصم يوماً في مسجده، فخرج ليؤذن لصلاة العصر، فوقف موضع المئذنة ثم قال بصوت عالٍ: أخبرنا الربيع بن سليمان، أخبرنا الشافعي، ثم ضحك وضحك الناس، ثم أذّن».

ومنهم: الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن محمد بن سليمان الباغَنْدي (ت ٣١٢) رحمه الله، أسند الخطيب في «تاريخه» ٤: ٣٤٥: إلى العتيقي، عن ابن شاهين: أن الباغندي قام يصلي فكبَّر، ثم قال: حدثنا لُوَين. فسبَّحنا به، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.

ونقل هذه الرواية عنه ابن الجوزي في «المنتظم» ١٣: ٢٤٥، ثم أسندها من وجه آخر إلى ابن المهتدي، عن ابن شاهين قال: «صليت خلف الباغندي فافتتح الصلاة، ثم قال: حدثنا لُوَيْن. فقيل له: سبحان الله، فقال: أنبأنا شيبان بن فروخ الأيلي، فقالوا: سبحان الله، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم».

ومنهم: القاضي أبو جعفر محمد بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي (ت ٤١٤) رحمه الله، ترجمه ابن الجوزي أيضاً في «المنتظم» ١٥: ١٦٢ فقال: «كان عالماً بالفقه، وكان فقيراً متزهداً، فبات ليلة مكروباً من الإضاقة ـ أي: الحاجة والفقر ـ، فوقع له فرع من مذهبه فأعجب به، فقام قائماً يرقص في داره ويقول: أين الملوك وأبناء الملوك، فسألته زوجته عن حاله، فأخبرها، فتعجَّبت!!».

وكأنه يتمثّل حال الإمام محمد حين كانت تنحلُّ له المشكلات، وهو سهران الليل، فيقول: أين أبناء الملوك من هذه اللذات؟! كما سيأتي ص١٤٤.

وأصل هذه الكلمة للإمام العارف القدوة إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١) رضي الله عنه، في قصة رواها أبو نعيم في «الحلية» ٧: ٣٧٠ ـ ٣٧١: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه من السرور والنعيم، إذاً لجالدونا على ما نحن فيه بأسيافهم».

(١) أُذكِّر الأخ القارئ الكريم بقراءة كتاب «قيمة الزمن عند العلماء» لفضيلة شيخنا سيدي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، تغمده الله برحمته، مرة بعد مرة، فهو من =

مسلم ـ أن يدرك عِظم أهمية الزمن الذي وهبه الله تعالى لكل عبد، وأن كل دقيقة تذهب منه فإنما يذهب بها بعضه، ولا تعود، فعليه أن يملأها بما ينفعه دنيا وأخرى، ونَظَر الإمام ابن الجوزي رحمه الله إلى قوله جل شأنه في سورة قَ الآية ١٨: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾، فقال مخاطباً لولده في نصيحته المشهورة[١]: «إن الملَكين يُحصيان ألفاظك ونظراتِك، **وإن أنفاس الحيّ خُطَاه إلى أجله**، فكلّ نَفَس يخرج منك، بمنزلة خَطوة تخطوها إلى منتهى أجلك، وستصل إليه»، فليتدبر العاقل.

وهاهنا حديثان شريفان له، أولهما للعاجل، وثانيهما للآجل، وأولى الناس بهما، وبالتدبر والتعقُّل لهما: أهلُ العلم وطلابه.

أولهما: ما رواه ابن أبي شيبة[٢] عن عمرو بن ميمون مرسلاً، ورواه الحاكم موصولاً عن ابن عباس، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتَك قبل موتك، وفراغك قبل شَغْلك، وغِناك قبل فقرك، وشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سَقَمك».

وكل واحدة من هذه الوصايا النبوية الخمسة، هي في حينها لصاحبها، من أنفسِ ما يَتَواصى به المتواصون، وأهمِّ ما يتناصح به المتناصحون، فكيف بها مجتمعةً صدرت من وحي النبوة الكريم، على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم؟ فهي من أغلى ما يقدَّم هديةً ثمينة لكل

خير الحوافز[١] له على هذه المعاني.

(١) «لفتة الكبِد إلى نصيحة الولد» ص٨.

(٢) في «مصنَّفه» (٣٥٤٦٠) بإسناد قوي، والحاكم (٧٨٤٦).

(١) جمع الحافز: حفز دفع من خلفه، حفزه إلى الأمر حثه عليه

طالب علم خاصة، ولكل مسلم عامة، «والنصح أغلى ما يباع ويُوهَب».

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على توصية كل مسلم باغتنام نعمة الحياة ـ فقط ـ قبل أن يَفْجَأه الموت، وباغتنام نعمة الفراغ ـ فقط ـ قبل أن يدهمه الشّغل ـ وكذلك النِّعم الثلاثة الأخرى كلٌّ على حِدَة ـ، فكيف يكون واجب هذا الطالبِ ـ بل كلِّ مسلم ـ إذا كان ممتّعاً بهذه النعم الخمس مجتمعةً فيه؟!.

وثانيهما: ما رواه الترمذي[١] عن أبي بَرْزَة الأسلمي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قَدَما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل: عن عمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيمَ فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيمَ أبلاه».

فإذا كان هذا حالَ كلِّ مسلم ـ وكلِّ طالب علم ـ: لن يبرح من مكانه يوم القيامة، حتى يُسأل عن أركان نعمه الدنيوية: بماذا ملأها، وكيف تصرَّف بها، والسائلُ المحاسِب له هو ربُّ العالمين، الذي لا تخفى عليه خافية، فليُعِدَّ كلٌّ منا العُدَّة والجواب الذي يعتقد أن الله سيقبله منه.

ومعلوم عن عالَم السؤال في الآخرة: أن السؤال يكون تفصيلياً لا إجمالياً، فهذا مما يزيد المسلمَ المسئولَ اهتماماً بأمره وعاقبته، ونسأل الله العافية[٢].

---

(١) (٢٤١٧) وقال: حسن صحيح.

(٢) قولهم في كتب اللغة: العافية: دفاع الله عن العبد، يريدون: دفع الله عن العبد ـ المكاره ـ.

وأقول لأخي طالب النجاح والفلاح، والنبوغ والرفعة إلى مقام علمي نبيل، أقول ناصحاً مرشداً، وممسكاً بإِصبَع يده، واضعاً لها على سرّ ذلك: إنه أمران، **أولهما**: منك، وهو علوُّ همتك في الطلب، واغتنامُك لحظاتِ حياتك.

وثانيهما: من الله تعالى الكريم المنعم المتفضل، وهو توفيقه لك، وتوفيقُ الله لك لا يتخلَّف عنك أبداً، وقد علم منك الإخلاص، والصدق في الطلب، والتحرُّق فيه. فإذا التقى الأمران كان ـ بإذن الله وفضله ـ العالمَ الربانيَّ، والإمامَ القدوةَ.

وأقول له أيضاً: إن هذه (الكُلَيْمات) تغنيك عن كتب لا عن كتاب، وإن الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ إبراهيم: ٣٤، أي: بلسان المقال أو بلسان الحال، فكن على ثقة تامة أن الله تعالى سيتكرَّم عليك ويعطيك سُؤْلك.

وسِيَر العلماءِ العاملين، والأئمةِ الربانيين، مناراتِ الهدىٰ والفضائل: هي خيرُ ما يُذكِّر ويذكَر في هذا المقام: مقامِ الحرص على الوقت، وغيره من أحوال طالب العلم كلها، وطالب كل خير.

من أقوال العلماء في قيمة الزمن:

ومن الأئمة الذين كانوا على حرص شديد لكسب وقتهم: الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى، ومما قاله في هذا المعنى[1]: إني

(١) في كتابه «صيد الخاطر» تحت الخاطرة (٢١ ـ بين العلم والعمل) ص٦٢.

«أقول عن نفسي: إنني رجل حبِّب إليّ العلم من زمن الطفولة، فتشاغلت ـ أي: فاشتغلت ـ به، ثم لم يحبَّب إليّ فنّ واحد منه، بل فنونُه، ثم لا تقتصر همتي في فنّ على بعضه، بل أروم استقصاءه، والزمانُ لا يسع، والزمان أضيق..».

وقال تحت الخاطرة (١٦٣ ـ دواء البطالين): «لما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجبُ انتهابُه بفعل الخير: كرهت ذلك ـ أي زيارة الزائرين له، البطالين ـ وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعتْ وحشة، لموضع قطعِ المألوف، وإن تقبَّلتُه منهم ضاع، فصرت أدافع باللقاء جهدي، فإذا غُلبتُ قصّرت في الكلام لأتعجَّل الفراق، ثم أعددتُ أعمالاً لا تمنع من المحادثة، لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من الاستعداد للقائهم: قطعَ الكاغَد ـ الورق ـ، وبَرْيَ الأقلام، وحَزْم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بدّ منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي. نسأل الله أن يعرِّفنا شرف أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتنامه».

ثم قال بعد أسطر: «فعلمت أن الله تعالى لم يُطْلع على شرف العمر، ومعرفة قدر أوقات العافية إلا مَن وفّقه، وألهمه اغتنام ذلك، ﴿وَمَا يُلَقَّنهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾» فصلت: ٣٥.

وبهذه الهمة العالية، وبهذه المحاسبة الشديدة للنفس على الوقت: استطاع الاطلاع على كبرى المكتبات العامة التي كانت في بغداد عاصمة الخلافة لمدة أربعة قرون ـ بالنسبة لتاريخه ـ قال رحمه الله تحت الخاطرة (٣٣٧ ـ القدماء أصحاب همم عليّة): «إني أُخبِر عن حالي: ما أشبع من

مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره فكأني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثَبَت - أي: فِهْرِس - الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوى على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثَبَت كتب - مدرسة - أبي حنيفة وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب - الأَنْماطي -، وابن ناصر - السَّلاَمي -، وكتب أبي محمد ابن الخشّاب، وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد، كان أكثر، وأنا بعدُ في الطلب»[1].

وفي مؤرِّخي المغرب: أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد، ويعرف بابن سعيد، صاحب «المُغْرِب في حُلَى المَغْرب»، وكانت وفاته سنة ٦٨٥ رحمه الله، ترجم لأبيه فقال[2]: «دخلت عليه في يوم عيد، وهو في جهد عظيم من الكَتْب، فقلت له: يا سيدي، أفي هذا اليوم لا تستريح؟ فنظر إليّ كالمغضَب وقال: أظنك لا تفلح أبداً! أترى الراحة في غير هذا؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغَها، ولوددت أن الله تعالى يضاعف عمري حتى أُتم كتاب «المغرب» على غرضي»، رحمه الله تعالى، ولم يُتم الكتاب، فأتمه ولده المذكور.

هكذا العزائم والهمم، وإلا فلا.

---

(١) يُنظر: هل مراده: ما زلت في مرحلة طلب العلم؟! أو: ما زلت في طلب المزيد من الكتب والمصنفات لمطالعتها، لم أقضِ أَرَبي ونَهْمتي من العلم؟ وهذا أقرب.

(٢) كما في «نفح الطيب» ٢: ٣٣٤.

همُ الرجال، وعيبٌ أن يقال لمن لم يتَّصفْ بمعاني وصفهم: رجلُ

وصدق الإمام ابن عطاء الله الإسكندري إذ قال في «حِكَمه»: «من لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة».

ومن أخبار حرصهم رحمهم الله على الوقت: - ويدخل في الفقرة التالية: حرصهم على اغتنام الفائدة -: ما حكاه الذهبي(١) عن أحمد بن علي الرقَّام: أنه سأل الإمام ابن الإمام: عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي: كيف اتفق له كلُّ هذا السماعِ والمسائلِ لأبيه؟ فقال: ربما كان - أبي - يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه(٢)، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه!!».

وكان الأمر بين الابن وأبيه على هذه الحال إلى قبيل ساعة الوفاة. قال ابن أبي حاتم(٣) في ترجمة عقبة بن عبد الغافر الأزدي: «سألت أبي وهو في النَّزْع عن عقبة بن عبد الغافر: هل له صحبة؟ فقال: لا، بلسان مسكين»! فانظر إلى الابن ما أحرصَه على الاستفادة، وإنْ أثقلَ على أبيه،

---

(١) في «السير» ١٣: ٢٥١.

(٢) يُنظر: هل المعنى: يقرأ عليه وهو ماشٍ يريد دخول الخلاء، أو أنه يفعل كما كان الإمام المجد ابن تيمية الجدّ يقول لابنه عبد الرحمن إذا دخل الخلاء: «اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع» حكاه ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» ٤: ٥، كلاهما محتمل، والله أعلم.

وقد علَّق الحافظ ابن رجب على هذا الخبر بقوله: هذا يدل «على قوة حرصه على العلم وحصوله، وحفظه لأوقاته».

(٣) في «الجرح والتعديل» ٦ (١٧٤٢).

وانظر إلى الأب ما أحرصَه على الإفادة: لم يبخل بها ولم يتضجَّر من ابنه، وهو في هذه الدقائق الأخيرة من حياته، فرضي الله عنهما وعن سائر علماء الإسلام.

ونقل أبو هلال العسكري(١) عن الإمام العبقري الخليل بن أحمد الفَراهيدي رحمهما الله تعالى قوله: «أثقلُ ساعاتٍ عليَّ ساعةَ آكل فيها!».

وكان في عصره الفقيه الزاهد العابد داود الطائي رحمه الله، فقد روى أبو نعيم(٢): أن دايةَ (قابلةَ) داودَ الطائيِّ قالت له: «يا أبا سليمان، أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية، بين مضْغ الخبز، وشُرب الفَتيت قراءة خمسين آية».

وقال ابن الجوزي(٣) في ترجمة أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي صاحب «الفنون» ـ وما أدراك ـ: رأيت بخط ابن عقيل يحكي عن نفسه: «إني لا يحلّ لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أُعمِل فكري في حال راحتي وأنا مستطرِح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أُسطّره، وإني لأجدُ من حرصي على العلم وأنا في عَشْر الثمانين، أشدَّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين!».

وقال ابن الجوزي أيضاً(٤) في ترجمة العالم الوزير ابن الوزير: أبي

---

(١) في جزئه «الحث على طلب العلم» ص٨٧

(٢) في «الحلية» ٧: ٣٥٠.

(٣) في «المنتظم» ٧: ١٨١.

(٤) في «المنتظم» ١٧: ٢٢.

شجاع محمد بن حسين الأهوازي، أنه كان مبتلًى بالوسوسة في الطهارة، فكتب إليه ابن عقيل ينصحه ويعاتبه على ضياع الوقت والماء: «إن أجلّ محصول عند العقلاء، بإجماع الفقهاء: الوقت، فهو غنيمة يُنتهز فيها الفُرص، والتكاليف كثيرة، والأوقات خاطفة، وأقلُّ متعبَّد به الماء..، فإن خطر بالبال نوع احتياط في الطهارة، فإنه يفوِّت من الأعمار ما لا يفي به الاحتياط في الماء الذي أصله الطهارة».

ونقل الحافظ ابن رجب(١) عن كتاب «الفنون» لابن عقيل نفسه قولَه عن نفسه: «قال حنبليّ ـ يعني نفسه ـ: أنا أقصر بغاية جهدي أوقاتَ أكلي، حتى أختار سَفّ الكعك وتحسّيه بالماء، على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوتِ المضْغ، توفّراً على مطالعة، أو تسطيرِ فائدة لم أدركها».

وحكى ابن أبي أُصَيبِعة(٢) عن الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله أنه قال: «والله إنني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز».

وقال الذهبي في ترجمة الإمام النووي رحمهما الله(٣): «كان لا يضيع وقتاً لا في ليل ولا في نهار، إلا في الاشتغال، حتى في الطُّرق..، وكان يأكل في اليوم والليلة أكلة، ويشرب شَرْبة واحدة عند السحَر».

---

(١) في «ذيل طبقات الحنابلة» ١: ٣٢٥.

(٢) في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ٢: ٣٤.

(٣) في «تذكرة الحفاظ» ٤: ١٤٧٢.

وقال الحافظ ابن عساكر[١] في ترجمة الإمام أبي الفتح سُلَيم بن أيوب الرازي رحمه الله تعالى: «حُدِّثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس، لا يَدَع وقتاً يمضي عليه بغير فائدة، إما ينسخ، أو يدرّس، أو يقرأ، وينسخ شيئاً كثيراً، ولقد حدثني عنه شيخنا أبو الفرج الإسفراييني: أن أبا الفتح نزل يوماً إلى داره ورجع فقال: قد قرأت جزءاً في طريقي. قال: وحدثني المؤمَّل بن الحسن: أنه رأى سُليماً حَفِيَ عليه القلم ـ أي: رَقّ ولم يَعُدْ يصلح للكتابة به ـ فإلى أنْ قَطَّه ـ أي: أصلحه للكتابة ـ جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم، لئلا يمضيَ عليه زمان وهو فارغ». رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ومثلُه وأبلغ منه في الحرص على الخير والإفادة: ما أسنده ابن أبي العوام[٢] إلى الإمام أحمد قال: «كان ابن المبارك يطوف البيت ويقول: فلان قويّ، وفلان ضعيف». أي: يشتغل بعلم الجرح والتعديل، وهو في الطواف! فهذا جمع لعبادتين في آن واحد.

وحكى السخاوي[٣] عن شيخه الحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى قال: «كان رحمه الله إذا جلس مع الجماعة بعد العشاء وغيرها للمذاكرة، تكون السُّبحة داخلَ كُمّه بحيثُ لا يراها أحد، ويستمرُّ يديرها وهو يسبِّح أو يذكر، غالب جلوسه، وربما تسقط من كمّه، فيتأثر بذلك، رغبة في إخفائه».

---

(١) في «تبيين كذب المفتري» ص٢٦٣.

(٢) في «فضائل أبي حنيفة» (٦١٨).

(٣) في «الجواهر والدرر» ١ : ١٧١.

وذكر قبل ذلك بقليل[(١)] أن الحافظ أقام بدمشق مئة يوم، من ٢١ من رمضان سنة ٨٠٢، إلى أول يوم من المحرم سنة ٨٠٣، وذكر ما قرأ فيها من الكتب وما سمعه، وأن جملتها «نحو ثلاثين مجلداً ضخمةً، تكون نحو أربع مئة وخمسين جزءاً حديثية[(٢)]، خارجاً عن الأجزاء الحديثية، وهي تزيد على هذا المقدار».

وذكر أنه كتب بخطه من الأجزاء الحديثية والفوائد النثرية ثمانَ مجلداتٍ فأكثر، وعمل «أطراف أحاديث كتاب «المختارة» للضياء المقدسي في مجلد ضخم، قال السخاوي: «ولو لم يكن له عمل في طول هذه المدة إلا هي، لكانت كافية في جلالته».

ب ـ أما الحرص على تحصيل العلم

ج ـ وكذلك الحرص على اغتنام الفائدة الواحدة خشية فواتها

فهذا المعنى هو الذي أراده الإمام البخاري رحمه الله تعالى، فيما حكاه الحافظ[(٣)] عن ورّاق البخاري، واسمه محمد بن أبي حاتم الوراق، قال: «بلغني أنه شرب البلاذُر[(٤)]، فقلت له مرة في خلوة: هل من دواء

---

(١) «الجواهر والدرر» ١ : ١٦٠.

(٢) والجزء الحديثي يقدَّر بأربعين صفحة، قاله الذهبي في «السير» ٢٠ : ٥٥٨.

(٣) في «مقدمة الفتح» ص٤٨٧ ـ ٤٨٨.

(٤) البلاذر: ثمرة تشبه قلوب الطير، ولونه أحمر إلى السواد، وفي داخله شيء شبيه بالدم، وهو نافع للنسيان وذهاب الحفظ. كما في «الجامع» لابن البيطار ١ : ١٥٤، و«المعتمد» للملك المظفر ابن رسول ص٣١، وكانوا يستعملونه لقوة الحفظ، =

للحفظ؟ فقال: لا أعلم، ثم أقبل عليَّ فقال: لا أعلم شيئاً أنفعَ للحفظ من نَهْمة الرجل، ومداومة النظر».

أما مداومة النظر: فسيأتي الحديث عنها إن شاء الله[١].

وأما النَّهمة: فهي شدة الحرص على الشيء، ومعلوم أن مَن كانت نَهْمتُه في العلم فإنه لا يشبع منه، كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «منهومان لا يشبعان: منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع»[٢].

ومن أخبار نَهمتهم في العلم رضي الله عنهم: ما جاء[٣] أولَ ترجمة الإمام الكبير إبراهيم بن الحسين ابن دِيْزِيل الهَمَذاني ـ أحدِ أقران الأئمة: البخاري ومسلم وغيرهما ـ، قال الذهبي: «يُلقَّب بـ: سِيفَنَّه، وسِيْفَنَّه: طائر ببلاد مصر، لا يكاد يحطُّ على شجرة إلا أكل ورقها حتى يُعْرِيَها، فكذلك كان إبراهيم، إذا ورد على شيخ لم يفارقه حتى يستوعب ما عنده».

وترجم الإمام ابن عساكر[٤] لأحد أئمة الحديث الرحالين، وهو من أئمة الصوفية المتحقِّقين: أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرآبادي،

والإكثار منه ضارّ، وممن تضرَّر به: البلاذري صاحب «فتوح البلدان».

(١) في المعلم الثامن ص١٦٠.

(٢) رواه الحاكم (٣١٢) وقال: صحيح على شرطهما ولم أجد له علـة، ووافقـه الذهبي، لكن فيه عنعنة قتادة عن أنس.

(٣) في «السير» ١٣ : ١٨٥.

(٤) في تاريخه ٧: ١٠٣.

المتوفَّى بمكة سنة ٣٦٧ رحمه الله تعالى، ومما جاء في ترجمته[١] قول تلميذه ورفيقه في طريق الحج: الإمام أبي عبد الرحمن السُّلمي: «ولما دخلنا البادية كان كلما نزل عن راحلته في سيره لا تفارقه المَحبرة والمَقْلَمة والبياض ـ أي: الورق ـ، فقلت: أيها الأستاذ: في هذا الموضع والناسُ يخفِّفون عن أنفسهم!! فقال: أبا عبد الرحمن، ربما أسمع شيئاً من جمّال أو غيره حكمة، أُثْبته كي لا أنسى».

وأسبقُ منهما: قتادةُ بن دِعامة الإمامُ في النُّورين: الكتاب والسنة، مع شيخه الإمام العَلَم سيد التابعين سعيد بن المسيَّب رضي الله عنهم، أيامَ محنة عامل المدينة المنورة لسعيد حين توقف عن إعطاء البيعة لولدَيْ عبد الملك بن مروان: الوليدِ وسليمانَ، فأقام العاملُ سعيداً في الشمس وضربه ستين سوطاً، أو أكثر أو أقلّ، وسعيدٌ في هذه الحال، قال قتادة: «أتيت سعيد بن المسيَّب، وقد أُلبِس تُبّان شَعر ـ سراويل قصيرة لستر العورة الغليظة ـ وأُقيم في الشمس فقلت لقائدي ـ وكان قتادة أكمهَ ـ: أَدنِني منه، فأدناني، فجعلت أسأله، خوفاً من أن يفوتني، وهو يُجيبني حِسبة، والناسُ يعجبون»[٢].

وقال العسكري[٣]: «حكي عن ثعلب ـ إمام الكوفة في اللغة العربية ـ أنه كان لا يفارقه كتاب يدرسه، فإذا دعاه رجل إلى دعوة شرَط عليه أن

(١) صفحة ١٠٩.

(٢) كما في «حلية الأولياء» ٢: ١٧١.

(٣) في «الحث على طلب العلم» ص٧٧.

يوسّع له مقدار مِسْوَرة - مِخَدَّة - يضع فيها كتاباً ويقرأ. وكان أبو بكر الخياط النحْوي - من علماء أواخر القرن الثالث - يدرس جميع أوقاته، حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جُرُف، أو خبطتْه دابة! وكان ابن الفرات لا يترك كل يوم إذا أصبح أن يحفظ شيئاً وإنْ قلّ. وسأل رجل أبا حنيفة عما يُورِث الحفظ، فقال: البِزْر البِزْر. - يريد: زيت السراج، يريد: السهر في العلم -. ونحوُ ذلك: أن رجلاً قال لسقراط: كيف حفظتَ هذا العلم الكثيرَ؟ فقال: أوقدتُ من الزيت أكثر مما شربتُ من الماء!!».

وبعدهم: الإمام شمس الأئمة السَّرَخْسي، المتوفَّىٰ نحو سنة ٤٩٠ رحمه الله تعالى، جرى بينه وبين أمير مدينة أُوْزْجَنْد ما أوغر عليه صدره، فحبسه في الجبّ، فخاف عليه تلامذته أن يُقضى عليه أمر، فتفاوضوا معه على أن يجلسوا عند فم الجبّ، وهو يُملي عليهم شرحاً على كتاب «الكافي» للحاكم الشهيد، الذي جمع فيه كتب الإمام محمد بن الحسن الشيباني الستةَ المعروفةَ بكتب «ظاهر الرواية»، فأجابهم إلى ذلك، وأملى عليهم كتابه الشهير «المبسوط»، المطبوع في ثلاثين جزءاً، وبعد أن فرغ منه أملى عليهم كتاباً في «أصول الفقه» طبع في مجلدين، ثم بدأ بإملاء شرح مستقل على «السِّير الكبير» للإمام محمد، فأملى عليهم من المطبوع مجلدين أيضاً، ثم أذِن الله تعالى بالفرج، فأتمّ شرحه في مدينة فَرْغانة.

وكان إملاء ذلك عليهم من حافظته دون رجوع إلى كتاب، ورضي الله عن هذه (المكتبة المتنقلة)[1].

---

(١) وتنظر ترجمته في «الجواهر المضية» للحافظ القرشي ٣: ٧٨ وغيره.

فلم يكن السَّجن أو التعذيب عائقاً للمستفيد، ولا عائقاً للمفيد، عن الاستفادة والإفادة.

وتقدم شيء من هذا القبيل في أخبار الإمام أبي حاتم الرازي وابنه رحمه الله تعالى[1].

وصدر للأخ الكريم الدكتور محمد مطيع الحافظ حفظه الله، كتاب «في ربوع الشام: دمشق»، ومما فيه صورُ سماعاتٍ لبعض الأجزاء الحديثية التي تمّ سماعها بدمشق، ومنها[2]:

ـ سماع على شيخٍ قبل وفاته بأربعة أيام.

ـ سماع آخر فيه: «ونحن سائرون على الدواب إلى النيرب.. من غوطة دمشق» يعني: إلى النزهة.

ـ إحضار لطفل عمره ثمانية أشهر، تحمله مرضعته.

ـ سماع «سنة خمس وثلاثين وست مئة بظاهر دمشق، وهي محصورة» في حال حرب وحصار.

ـ سماع «سنة خمس وسبع مئة بقرية الكسوة عند تلقي الحاجّ».

ـ سماع «سنة اثنتين وخمسين وست مئة بحمّام الصوفي بدرب الفراش من دمشق».

---

(١) صفحة ٨٧.

(٢) في هذه الصفحات المتفرقة على الترتيب: ص٤٧٣، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٦، ٤٨٨، ٥١٠، ٥١٥.

- سماع لجماعة كانوا في الحج سنة ٦٤٢، ومعهم بنت في السنة الخامسة من عمرها.

- سماع لأسرة خرجت إلى نزهة في قرية مقرى من غوطة دمشق، ومعهم بنت في السنة الثالثة من عمرها، مؤرخ سنة ٧٢٢.

- سماع لجزء كان أصحابه في السفينة من الجيزة إلى القاهرة سنة ٧٠٧.

- سماع لجماعة أُحضر معهم طفل وهو في اليوم الخامس من عمره، وهو في حَجْر أمه.

- سماع لجماعة أخرى، أُحضر معهم فاطمة بنت الإمام البِرْزالي، ولها من العمر ٩ أشهر - لا: ٥ أشهر -.

وفي كل هذه السماعات: معنى ناطقٌ بالحرص على شَغْل الوقت بالعلم، سواء في الرخاء، ككونهم في متنـزَّه، أو في شدة، ككون دمشقَ محاصرةً، أو في سفر قريب: من الجيزة إلى القاهرة، أو من دمشق إلى النيرب، من الغوطة، أو هم في خروج إلى ظاهر البلد لتلقي الحجاج.

وفي هذه السماعات: معنى ناطق أيضاً بالحرص على أن تشمل بركة العلم الشريف - وخاصة الحديثَ النبويَّ الشريف - أطفالهم الصغار: مولود له من العمر خمسة أيام، وآخر له من العمر ثمانية أشهر، وآخر عمره تسعة أشهر، ومما لا يحتاج إلى بيان: أن إحضار هؤلاء كان لتنالهم بركة العلم الذي أَخَذ حبُّه على أهليهم مشاعرَهم وأحاسيسَهم، وعلى أمل

أن يكونوا (رجال الغدِ المأمول)[١] للتشرُّف بحمله وخدمته.

وما كانت الشدائد في يوم من الأيام ـ على اختلاف أنواعها ـ عائقاً أو حائلاً بين العلم والعلماء، بل كان اشتغالهم بالعلم سُلواناً لهم عن كل مصيبة، وبلسماً شافياً لكل آلامهم، وقدَّمتُ قبل قليل[٢] خبر الإمام السرخسي وهو في الجبّ، وخبر قتادة مع سعيد بن المسيّب وهو يُجلَد، وخبر أبي حاتم الرازي وروحه تُنْزع منه!!.

وقد كان من دعاء الشيخ الإمام أبي محمد الجُوَيني والد إمام الحرمين رضي الله عنهما، في القنوت في الفجر: «اللهم لا تَعُقْنا عن العلم بعائق، ولا تمنعْنا عنه بمانعٍ. آمين آمين»[٣].

مدارستهم للعلم حتى في ساعات احتضارهم:

وروى ابن أبي العوام[٤] عن الإمام أبي نعيم الفضل بن دُكين الثقة الثَّبْت، أحدِ كبار شيوخ الإمام البخاري طبقةً وحجيَّةً، أنه قال: «دخلت على زُفَر ـ أحدِ أجلاء تلامذة الإمام أبي حنيفة ـ وقد احتُضِرَ، وهو يقول:

---

(١) انظر سبعة أبيات رائعة لحافظ إبراهيم افتتحها بهذا النداء ضمن قصيدته «تحية العام الهجري ١٣٢٧» هي في «ديوانه» ٢: ٣٧، وآخر هذه الأبيات السبعة:

رجال الغد المأمول إن بلادكم تناشدكم بالله أن تتذكروا

عليكم حقوق للبلاد أجلُّها تعهُّد روض العلم، فالروض مُقْفِر

(٢) صفحة ٩٣، ٩٤، ٨٧.

(٣) حكاه السبكي في «الطبقات» ٥: ٧٤.

(٤) في «فضائل أبي حنيفة» (٦٨١).

في حالٍ لها مهر، وفي حال لها ثلثا مهر»، فهو يدرُس في حال احتضاره، في نفسه مع نفسه، صورةً من صُور مسائل الفقه.

ثم روى[(١)] نحو هذا عن الإمام أبي يوسف القاضي أشهر تلامذة أبي حنيفة، فأسند إلى إبراهيم بن الجراح قوله: «مرض أبو يوسف، فأتيته أعوده، فوجدته مُغْمًى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم، ما تقول في مسألة؟ قلت: في مثل هذه الحالة! قال: وَلا بأس بذلك، لعله ينجو به ناجٍ. ثم قال: يا إبراهيم، أيُّما أفضل في رمي الجمار: أن يرميها ماشياً أو راكباً؟ قلت: راكباً، قال: أخطأتَ، قلت: ماشياً، قال: أخطأتَ، قلت: قل فيها رضي الله عنك! قال: أما ما كان يُوقَف عنده للدعاء: فالأفضل أن يرميه ماشياً، وأما ما كان لا يوقف عنده: فالأفضل أن يرميه راكباً، ثم قمت من عنده، فما بلغتُ باب داره حتى سمعت الصُّراخ عليه، وإذا هو قد مات. رحمة الله عليه».

وقال الزَّرنوجي رحمه الله[(٢)]: «قيل: رُئي محمد رحمه الله في المنام بعد وفاته، فقيل له: كيف كنت في حال النزع؟ فقال: كنت متأملاً في مسألة من مسائل المكاتَب، فلم أشعر بخروج روحي».

وختم الحافظ ابن عساكر ترجمة الإمام أبي مسعود الرازي بهذا الخبر، قال[(٣)]: قال محمد بن يوسف البنا: رأيت أبا مسعود أحمد بن

---

(١) ابن أبي العوام أيضاً (٧٦٥).

(٢) في «تعليم المتعلم» ص٨٤.

(٣) في «تاريخه» ٥ : ٥٧.

الفرات في النوم ـ بعد وفاته ـ فجعل يقول: حدثنا، وأخبرنا، فقلت: يا أبا مسعود، وفي الآخرة أيضاً: حدثنا، وأخبرنا؟! قال: نعم، وفي الآخرة: حدثنا وأخبرنا.

وكان من علماء بلدي الأول ـ مدينة حلب، أنقذها الله وسائر بلاد المسلمين من الفتن ـ عالمان كبيران، هما من مشايخ مشايخي جميعهم فيها بلا استثناء: العلامة الفقيه الشافعي التقيّ النقيّ الرباني الشيخ محمد سعيد الإدلبي (١٢٨٨ ـ ١٣٧٠)، والعلامة المحدث المؤرخ ناشر نفائس تراث السنة وعلومها، آنذاك، الشيخ محمد راغب الطباخ (١٢٩٣ ـ ١٣٧٠) رحمهما الله تعالى، توفيا في عام واحد، وكانا يسكنان في حيّ واحد، وتوفيا على حال واحدة.

أما الأول منهما: فسئل: ما يفعل من جاءته سكرات الموت؟ فقال: يطلب العلم. وحصل له هذا، كان كلما صحا من سكرات الموت ـ تغمده الله بالرحمة ـ يقول لمن حوله: أعطني الكتاب، حتى مات والكتاب على صدره.

وأما الثاني: فدخل عليه شاب من طلابه، وحول الشيخ مساند كثيرة، يستند إليها كيفما التفت، فسأله عن أمر، فقال له: ناولني هذا الكتاب، فأتاه به، فأخذه الشيخ، فثقل عليه المرض، ودخل عليه ابنه، فاعتذر إلى التلميذ الشاب، وأشار إليه بالخروج، فخرج، فلم يغادر الباب إلا وتوفي الشيخ، تغمده الله برحمته.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المَعْلَم الخامس

علوّ الهمة في طلب العلم

تعريف الهمّة: عرَّف العلماء الهمة بتعريفات عدَّة، يكاد يكون الاختلاف فيها لفظياً، ورأيت أوْلاها ما حكاه العلامة الأصولي، الأخلاقي الحكيم، المجاهد، شيخ الأزهر سابقاً الشيخ محمد الخَضِر حسين (١٢٩٣ ـ ١٣٧٧) رحمه الله تعالى[1]، قال: «أحكمَ علماء الأخلاق بيان هذا الخُلُق فقالوا: هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور».

الحث على رفع الهمة في طلب العلم:

وأقول: لقد استنهض الله عز وجل هِمَم عباده في عمل الخير، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ البقرة: ١٤٨، وقال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ الصافات: ٦١، وقال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين: ٢٦.

وكذلك حضّنا النبي صلى الله عليه وسلم على هذا المعنى بقوله الكريم، الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «المؤمنُ القويُّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، اِحرِصْ على ما

---

(١) في كتابه «رسائل الإصلاح» ٢: ٢٠٣، وهو كتاب كاسمه: فيه علم صحيح، وعمل رشيد، وفكر سديد.

ينفعك، واستعنْ بالله، ولا تَعجِزْ»(١).

ولا أنفعَ من العلم للمؤمن، وتأملْ قوله صلى الله عليه وسلم «احرِص»، و«استعنْ»، و«لا تعجِز»: ففيها من معاني علوّ الهمة واستنهاضها الشيءُ الكثير، وصلى الله وسلم على معلم الناس الخيرَ كلَّ الخير.

يقول الزمخشري رحمه الله في أبياته المشهورة، التي مطلعها(٢):

سَهَري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وصْل غانية وطِيبِ عِناقِ

ثم يقول في آخرها:

يا من يحاول بالأماني رُتْبتي: ... كم بين مُستَفِلٍ وآخرَ راقي

أأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتَبيتُه ... نوماً، وتبغي بعد ذاك لَحاقي؟!

والعلم الشريف أعزُّ مطلوب، وأكرم مقصود بعد الإيمان بالله عز وجل، ويقولون: مَن يخطُبِ الحسناءَ يستسهلْ مهرها، وقد نظم هذا القول: الإمام النَّحْوي المشهور ابن هشام رحمه الله، المتوفى سنة ٧٦١ عن ثلاث وخمسين سنة ـ وقد بلغ هذه الإمامة ـ، فقال(٣):

ومَن يَصطبِرْ للعلم يظفرْ بنَيْله ... ومن يخطُبِ الحسناءَ يصبرْ على البذل

---

(١) وهو في «صحيح مسلم» ٤: ٢٠٥٢ (٣٤).

(٢) تنظر الأبيات بتمامها، وينظر القول في نسبتها إلى الزمخشري في كتاب شيخنا رحمه الله تعالى «صفحات من صبر العلماء» ص١٣٩.

(٣) كما في «الدرر الكامنة» ٢: ٣٠٩.

(١) سهر يسهر سهراً لم ينم كل الليل أو بعضه
(٢) سواد الليل وظلمته

وَمَن لم يُذِلَّ النفسَ في طلب العـلا   يسيراً، يعشْ دهراً طويلاً أخـا ذلّ

وينبغي أن نلاحظ قوله «ومن يصطبر للعلم»، فإنه أبلغ من قوله: ومن يصبر على العلم، فالاصطبار أبلغ من الصبر، لما هو مقرَّر من أن زيادة المبنى، تدل على زيادة المعنى.

وكذلك حال من يطلب العلم، عليه أن يبذُل في سبيل الحصول على الرتب العالية فيه أغلى ما يملك، ويغالب ويقاوم العوائق كلها، ليدرك منه، ما يمنّ الله عليه به، على قدر إخلاصه فيه، وعلى قدر بذْله في سبيله.

قال أبو هلال العسكري(١): «إذا كنت أيها الأخ ترغبُ في سموّ القدر، ونباهة الذِّكر، وارتفاع المنزلة بين الخلق، وتلتمسُ عزاً لا تثلِمُه الليالي والأيام، ولا تَتَحيَّفُه ـ لا يَنقُص مدى ـ الدهور والأعوام، وهيبةً بغير سلطان، وغنىً بلا مال، ومنَعةً بغير سلاح، وعلاء من غير عشيرة، وأعواناً بغير أجر، وجنداً بلا ديوان وفَرْض: فعليك بالعلم، فاطلُبه في مظانّه، تَأْتِك المنافع عفواً، وتَلْقَ ما يعتمد منها صفْواً، واجتهد في تحصيله لياليَ قلائل، ثم تذوَّقْ حلاوة الكرامة مدة عمرك، وتمتَّع بلذة الشرف فيه بقية أيامك، واستَبْقِ لنفسك الذكر به بعد وفاتك».

ثم ذكَر قول سيدنا عليّ رضي الله عنه «قيمة كلِّ امرئ ما يُحسِنه»، وعلَّق عليه(٢) بقوله: «إذا تدبَّرت هذا كنت حقيقاً بالاجتهاد في طلب العلم

(١) في أول جزئه النافع «الحثّ على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» ص٤٣

(٢) ص٤٥ ـ ٤٦.

أوانَ قدرتك عليه، غيرَ معذور في التواني عنه، والتقصير فيه، لأن العاقل لا يعتمد تَخْسِيس قيمته، ولا يغفُل عما يرفع قدره».

ومن وصايا العلامة العَلْمَوي رحمه الله في كتابه «المعيد في أدب المفيد والمستفيد»[١]: «ينبغي - للطالب - بل يتعيَّنُ: أن تكون همته في طلب العلم عالية، فلا يكتفي بقليل العلم مع إمكان كثيرِهِ، ولا يقنعُ من إرث الأنبياء بيسيرِهِ، ولا يؤخرُ تحصيل فائدة تمكَّن منها، ولا يشغلُه الأمل والتسويف عنها، فإن للتأخير آفات، ولأنه إذا حصّلها في الزمن الحاضر، نفعتْه في الزمن الآتِ، ويغتنمُ وقت الفراغ والنشاط، ويجتهد في الاستنتاج والاستنباط قبل عوارض البطالة، وموانع الرئاسة والملالة».

وهذه كلمات غاليات، أحب أن أقف قليلاً عند كلمتين منها.

أولاهما: قوله «ولا يقنع من إرث الأنبياء بيسيره»، فهذه كلمة عزيزة كريمة، ذات لَفْتة إلى معنى عزيز كريم: إنك يا طالبَ العلم طالبٌ لميراثك وحظك، ممن؟! من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، فهل تقنع بأيِّ مقدار كان، أو أنك تطلب المزيد والمزيد؟! تكون كما قال المتنبي:

إذا غـامرتَ في شـرف مَـروم ... فـلا تـقنع بمـا دون النجـومِ

فطعـمُ المـوتِ في أمـر حـقير ... كطعـمِ المـوتِ في أمـر عظـيم

ثانيتهما: قوله «ولا يشغله الأمل والتسويف عنها»، أي: عن تحصيل الفائدة، وأنقل لك هذه الآثار الثلاثة عن بعض السلف في التحذير من

---

(١) صفحة ٧٦.

التسويف، رواها ابن أبي الدنيا[١].

الأول: عن أبي إسحاق السَّبيعي رحمه الله قال: قيل لرجل من عبد القيس: أوصِ، قال: احذروا «سوف».

والثاني: عن أبي الجَلْد جَيلان بن فَروة رحمه الله قال: قرأت في بعض الكتب: أن «سوف» جند من جنود إبليس.

والثالث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «التسويف جندٌ من جنود إبليسَ عظيمٌ، طالما خدَعَ به».

وهذا خُلُق يجب أن يحترس منه كل إنسان، وطالبُ العلم خاصة.

لا يستطاع العلم براحة الجسم:

ولأبي نصر يحيى بن أبي كثير اليمامي، أحدِ سادات التابعين الثقات، ومن مشاهير رواة الحديث في الكتب الستة وغيرها، كلمةٌ مشهورة مأثورة، تستنهض همم الفاترين في طلب العلم، قال رحمه الله: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم»، ولهذه المقولة خبر.

روى الإمام مسلم حديث أبي مسعود البدري، وعائشة، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم في مواقيت الصلوات الخمسة[٢]، رواها بألفاظ متعددة عن ثلاثةَ عشَر شيخاً: عن قتيبة بن سعيد البَغْلاني ـ وبَغْلان قرية من بلخ، وهي الآن في بلاد الأفغان ـ، وعن يحيى بن يحيى النيسابوري،

---

(١) في كتابه «قِصَر الأمل» (٢٠٦ ـ ٢٠٨).

(٢) في «صحيحه» ١: ٤٢٥ ـ ٤٢٧ (١٦٦ ـ ١٧٤).

وأبي بكر ابن أبي شيبة الكوفي، وعن عمرو بن محمد الناقد البغدادي الرقي ـ من سورية ـ، وعن حرملة بن يحيى التُّجِيبي المصري، وعن محمد بن عبد الله بن نُمير الكوفي، وعن أبي غسانَ المِسْمَعي، واسمه مالك بن عبد الواحد البصري، وعن محمد بن المثنى العَنَزي البصري، وعن عبيدالله بن معاذ العنبري البصري، وعن زهير بن حرب النسائي ـ من مدينة نَسَا ـ ثم البغدادي، وعن أحمد بن إبراهيم الدورقي البغدادي، وعن أحمد بن يوسف الأزدي النيسابوري.

ثم أَتْبع هذه الروايات عن هؤلاء الشيوخ بقوله: «حدثنا يحيى بن يحيى التميمي قال: أخبرنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير قال: سمعت أبي يقول: لا يستطاع العلم براحة الجسم».

ومعلوم أن من مزايا «صحيح مسلم» على «صحيح البخاري» أنه ـ كما قال ابن الصلاح ـ: ليس فيه بعد مقدمته إلا الحديث السَّرْد، فما الداعي له إلى رواية هذه المقولة هنا؟.

قال القاضي عياض[1]: «كثيرٌ مَن يَسأل عن ذكر مسلم هذا الخبرَ في هذا الموضع، وليس منه، ولا هو من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ولا من شرط الكتاب، فقال لنا بعض شيوخنا: إن مسلماً رحمه الله أعجبه ما ذَكَر في الباب، وعرف مقدار ما تعب في تحصيله وجمعه من ذلك، فأدخل بينها الخبر، تنبيهاً على هذا، وأنه لم يُحصِّل ما ذكر إلا بعد مشقة وتعب، وهو بيِّن، والله أعلم».

---

(١) في شرحه «إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم» ٢: ٥٧٧، وعنه النووي ٥: ١١٣.

فمن الأفغان إلى نيسابور، إلى الكوفة، إلى بغداد، إلى الرقة، إلى البصرة، إلى مصر، بلدان مترامية الأطراف، مع وسائل بدائية في السفر والتَّرحال، فهذا ما دعا الإمام مسلماً إلى أن يختم هذه الروايات بكلمة يحيى بن أبي كثير: لا يستطاع العلم براحة الجسم، فكانت بمثابة حجر الأساس في منهج طالب العلم.

ولهذه الكلمة «المنهجية» خبر آخر يتصل بها.

حكى الذهبي رحمه الله[(١)] عن الإمام ابن الإمام: ابن أبي حاتم الرازي قال: «كنا بمصر سبعةَ أشهر، لم نأكل فيها مرقاً، كلُّ نهارنا مقسَّم لمجالس الشيوخ، وبالليل: النسخ والمقابلة، قال: فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا، فاشتريناه[(٢)]، فلما صِرنا إلى البيت حضر وقتُ مجلسٍ، فلم يُمكنّا إصلاحه، ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكاد أن يتغيَّر، فأكلناه نِيْئاً، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه، ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد».

(١) في «السير» ١٣ : ٢٦٦.

(٢) جاء الضمير بصيغة التذكير هنا وما بعده؛ لأنه جاء في رواية ابن عساكر ٣٥: ٣٦١ «حوتاً» بدل: سمكة.

ويضاف إلى هذا الخبر خبرُ الإمام أبي إسحاق الشيرازي مع (مرقة الفول) الآتي ص٢٥٦.

(١) ماء أُغلي فيه اللحم فصار دسماً
(٢) كل الشيء شأنه أن يعالج بطبخ، يقال لحم نيء، مخلوع

وكلمة يحيى بن أبي كثير بتمامها[١]: «ميراث العلم خير من ميراث الذهب، والنفس الصالحة خير من اللؤلؤ، ولا يستطاع العلم براحة الجسد».

ومعنى «لا يستطاع العلم» ـ والله أعلم ـ: أن العلم لا يكون طَوْعَ الإنسان يأخذ منه ويستفيد، ويحتج ويستدل، مع راحة الجسم والدَّعَة، ولذيذ المُقام، وطيب المنام، بل لا بدّ من التعب والنَّصَب، وتحمّل المشاقّ وغربة الأسفار.

جاء في «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان»[٢]: كان أسد يقول: «ضربنا في طلب العلم آباط الإبل، واغتربنا في البلدان، ولقينا العلماء، وغيرُنا إنما طَلب العلم خلفَ كانون أبيه، ووراءَ مَنْسَج أمه، ويريدون أن يلحقونا!!».

وكانت لأسد رحلة طويلة وبعيدة، من القيروان في تونس، إلى المدينة المنورة، إلى العراق، إلى مصر، ثم عاد إلى بلده، وجمع بين الثقافتين والفقهين: الحجازي والعراقي، ونقلهما إلى المغرب. ورحلته: شيِّقة ممتعة، ينبغي لطالب العلم أن يقرأها في مصادرها المطوَّلة بتأنّ وتدبّر، ففيها دروس وعبر.

---

(١) كما في «تاريخ بغداد» ١١ : ٣٧٥ ترجمة عبد الله بن محمد الرِّقاعي، بالقاف، لا بالفاء.

(٢) ٢ : ١٨ في ترجمة الإمام أسد بن الفرات رحمه الله تعالى.

وحكىٰ ابن النجار[١] من كلام أبي بكر محمد بن الإمام داود الظاهري: «من لم يشرب ماء الغُربة، ولم يضع رأسه على ساعد الكُربة، لم يعرف حق الوطن والتربة، ولم يعرف حقَّ ذي العلم والشيبة».

ومن أخبارهم في علو الهمة في العلم وتحصيله واغتنامه ما يلي:

روى الخطيب[٢] عن عُبيد بن يَعيش الكوفي العطار أحد الثقات، ومن شيوخ البخاري ومسلم، أنه قال عن نفسه: «أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي، يعني بالليل، كانت أختي تُلْقِمُني، وأنا أكتب الحديث». يعني: حين كان يبيِّض في الليل ما كان يكتبه في النهار عن الشيوخ.

ومن أخبار أحبارهم: ما جاء في ترجمة الإمام شريف الدين التِّلِمْساني (٧١٠ - ٧٧١) رحمه الله تعالى[٣] قال فيها: «حضر يوماً مجلس أبي زيد ابن الإمام[٤] في تفسير القرآن، فذكر نعيم الجنة، فقال له الشريف، وهو صبيّ: هل يُقرأ فيها العلم؟ فقال له - الشيخ جواباً عاماً -: نعم، فيها ما تشتهيه الأنفس، وتَلَذُّ الأعين، فقال له: لو قلتَ: لا، لقلت لك: لا لذة فيها، فعجب منه الشيخ ودلّه.

---

(١) في «ذيل تاريخ بغداد» ١:٢٠٧.

(٢) في «الجامع» (١٥٩٢).

(٣) في «نيل الابتهاج» للتُّنْبُكتي ص٤٣٣.

(٤) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التلمساني (ت ٧٤٣) رحمه الله، من أئمة السادة المالكية، وصفه ابن فرحون في «الديباج المذهب» ١: ٤١٦ بالإمام العلامة الأوحد.

واستفرغ التلميذ النَّهِمُ وُسْعه في طلب العلم حتى ذكر بعضُهم أنه لازمه أربعة أشهر فلم يره نزع ثوبه ولا عمامته، لشَغْله بالنظر والبحث، فإذا غلبه النوم نام نوماً خفيفاً، فإذا أفاق لم يرجع إلى النوم ويقول: أخَذَت النفس حقها، فيتوضأ، والوضوء من أخفّ الأشياء عليه، ثم رجع للنظر، وابتدأ الإقراء ـ أي: التدريس ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة!».

ثم حصل لهذا (الصبي) مع هذا الشيخ موقف آخر، قال التُّنْبُكتي[1]: «وبحث يوماً مع أبي زيد ابن الإمام في حديث، وتجاذبا فيه الكلام جواباً، حتى ظهر (التلميذ)، فأنشد الشيخ:

أعلِّمـه الرمايـة كـلَّ يـوم فلما استَدَّ ساعده رمـاني»

[وكم علَّمته نظم القـوافي فلمـا قـال قافيـة هجـاني]

وفي ترجمته نفائس، هي من نَتَاج هذه الهمة العالية النادرة، والنَّهمة الفائقة، والعشق للعلم، حتى وصفوه ببلوغه رتبة الاجتهاد، فَتُقرأُ بتأنّ وإمعان.

ومن أخبارهم في علوّ الهمة في تحصيل العلم: ما حكاه العلامة الشيخ محمد الخَضِر حسين رحمه الله بقوله[2]: «عكف أبو صالح أيوب بن

---

(١) في «نيل الابتهاج» ص٤٣٥.

(٢) في «رسائل الإصلاح» ١: ٩٩ من مقاله النافع الماتع: «كبر الهمة في العلم». وأيوب بن سليمان، هو المَعَافري، من علماء المالكية في القرن الثالث، وكانت وفاته رحمه الله أول القرن الرابع سنة ٣٠١، أو ٣٠٢. ومصادر ترجمته كثيرة، لكني لم أر هذه القصة فيما رجعت إليه منها، لكن الشيخ عمدة.

سليمان على كتاب العروض حتى حفظه، فسأله بعضهم عن إقباله على هذا العلم بعد الكِبَر؟ فقال: حضرت قوماً يتكلمون فيه، فأخذني ذلّ في نفسي أن يكون باب من العلم لا أتكلم فيه».

ومنها: ما حكاه السخاوي عن شيخه ابن حجر رحمهما الله تعالى[(١)] قال: «كنت في أول الأمر أنظم الشعر من غير تقدّمِ اشتغالٍ في العروض، فسألني شخص أن يقرأ عليّ مقدمةً في العروض سريعةَ المأخذ، فأجبته لذلك وواعدته ليومٍ عيَّنْتُه له، ثم توجهت في الحال من مصر ـ حيّ مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه، الآن ـ، إلى القاهرة ـ حيّ الأزهر ـ، فاجتمعتُ بصاحبنا البدر البَشْتَكي، وسألته عن مقدمةٍ في ذلك سهلة التناول، فأشار إليها، فأخذتها منه، وقرأت عليه منها مجلساً، استفدت منه معرفة الفنّ بكماله، ورجعت، فأقرأتها السائل، ولم أحتجْ لقراءة باقيها».

قال: «وَجَدَّ رضي الله عنه بهمة وافرة، وفكرة سليمة باهرة، في طلب العلوم، منقولها ومعقولها، حتى بلغ الغاية القصوى، وصار كلامه مقبولاً عند أرباب سائر الطوائف، لا يَعْدُون مقالته، لشدة ذكائه، وقوة باعه، حتى كان حقيقاً بقول القائل:

وكان من العلوم بحيث يُقضَىٰ ... لـه في كـل علـم بـالجميع»

وجاء في التعليق على «طبقات» السبكي[(٢)]: «كان ـ الخُسْروشاهي ـ

---

(١) في «الجواهر والدرر» ١ : ١٣٩.

(٢) ٨ : ١٦٢ زيادةٌ في ترجمة عبد الحميد بن عيسى الخُسْرُوشاهي، المتوفىٰ =

يحكي من جلالة الإمام ـ الفخر الرازي ـ وعظمته أنه هو وسائر طلبة الإمام صبَّحهم يومٌ أبيض ـ كثيرُ الثلج ـ، ونَوْءٌ بات ياسَمينُه على الأرض يُنفَض، والثلج قد أبطل كل حركة، وكيف لا، وهو بلا شك كافور، والسحائب عمَّ عطاؤها في البلد، فساوى بين مستَفِلات الأرض وشُرُفات السُّور، وهمتهم مع ذلك، لم تَخْمُد نيرانها، ولم تفتُر عن سماع كلمات الإمام آذانها، وإن عامتِ الأرض لكثرة الماء، وعمَّت الجدرانَ سحائبُ السماء، وأبتْ همتهم أن تبطُل فوائدُ الإمام، ولو بطلت الحواسّ الخمس، ونفوسُهم أن تغيب عن كلماته، وإن غابت تحت الغمام عين الشمس.

فأتوا جميعاً ووقفوا تحت طاقة الإمام، ووضعوا على رؤوسهم كساء يمنع وصول المطر، وفتحوا «المحصول»[1]، وشرع واحد يقرأ ثم واحد، والإمام لا يُدني رأسه من الكُوّة إلا لمن يرتضيه، فمنهم من يجيبه، ومنهم من يقرأ إلى آخر درسه، والإمام لا يلتفت إليه، تمريناً منه رحمه الله على الآداب، وتعريفاً لمقدار العلم، وأنه يَعِزُّ، وإنِ اقتحم ذو العزيمة الأهوال، وظن أن همته تعلو السحاب»[2].

سنة ٦٥٢، أحد تلامذة الإمام الفخر الرازي، وممن كان على نهجه: أصولياً كلامياً، رحمهما الله، جاءت هذه الزيادة نقلاً عن ترجمته في «الطبقات الوسطى» للسبكي نفسه.

(١) للإمام الفخر الرازي نفسه، وهو من عُمُد كتب أصول الفقه الشافعي، على طريقة المتكلمين.

(٢) نقل هذا الخبر العَلْموي في «المعيد» ص٤١، ويصحح ما هناك على ما هنا.

الكلمة الطيبة وأثرها في صنع الرجال:

وعلوُّ الهمة في طلب العلم يستدعي حديثاً طويلاً لا ينتهي في فصل من فصول هذا الكتاب، لكنه يحلو بالأحاديث والأخبار عن الهمم التي جاءت بالعجائب، وتولّد عنها وقائع هي إلى الكرامات والخوارق، أقرب منها إلى الواقع المادي البشري، ولكني لن أُبعِد.

- أحيل أولاً الأخ القارئ إلى قراءة خبر ذاك الشاب سَنَد بن علي الآتي[١].

- ثم أذكُر قصة أحد كبار السادة الشافعية أبي بكر عبد الله بن أحمد المروزي القفال الصغير، المتوفَّى سنة ٤١٧ عن تسعين سنة رحمه الله تعالى، أنقلها بطولها من «معجم البلدان» لياقوت[٢]:

قال ياقوت رحمه الله: «وإليها - وإلى مروالشاهِجان - ينسب عبد الله - لا: عبد الرحمن - بن أحمد بن عبد الله أبو بكر القفال المروزي، وحيد زمانه فقهاً وعلماً، رحل إلى الناس، وصنَّف وظهرت بركته، وهو أحد أركان مذهب الشافعي، وتخرّج به جماعة، وانتشر علمه في الآفاق، وكان ابتداء اشتغاله بالفقه على كبر السنّ.

حدثني بعض فقهاء مرو بـ: قنين، من قُراها: أن القفال الشاشي - يريد رجلاً معروفاً في البلد، لا الإمام المتحدَّث عنه - صنع قفلاً ومفتاحاً وزنه

---

(١) صفحة ١٥٠، وذكْره هناك أليَق من ذكره هنا.

(٢) رسم (مروالشاهِجان)، وفي ترجمته عند ابن الصلاح - والنووي والمزي - في «طبقات الشافعية» ١: ٤٩٦، و«طبقات» السبكي ٥: ٥٣، إشاراتٌ إليها.

دانق واحد ـ والدانق: وزنه سُدُس وزن الدرهم ـ، فأُعجب الناس به جداً، وسار ذكره، وبلغ خبره إلى القفال هذا ـ أبي بكر ـ فصنع قفلاً مع مفتاحه وزنه طَسُّوج ـ أي: ربع دانق!![1] ـ، وأراه الناسَ، فاستحسنوه ولم

---

(١) اقرأ وتأملْ إلى أيّ حدّ وصل إليه أسلافنا المسلمون في مهارة الصناعة اليدوية، وذلك منذ نحو عشرة قرون، ولا تبادر إلى الإنكار والتكذيب وتقول: كيف يمكن لهذا الصانع أن يمسك بكلتا يديه القطع الحديدية الدقيقة ويركّبها ليصنع منها قفلاً مع مفتاحه، بهذا الوزن الصغير جداً.

وأحكي لك خبراً آخر يستثير عجبك أكثر من هذا، أحكيه لك بطوله من أوله إلى آخره:

كنت طالباً في السنة الثانية من المرحلة الثانوية، في الثانوية الشرعية بحلب، حرسها الله تعالى وسائر بلاد الإسلام، من هذه الفتن العمياء، وكان أستاذنا في درس الفقه الحنفي فضيلة سيدي العالم الأصولي الفقيه الصالح الورع الشيخ محمد السلقيني تغمده الله تعالى برحماته، وكان شديد الحرص على الوقت، ومن شدة حرصه أنه قد يدخل غرفة الدرس قبل الطلبة، وفي يوم من الأيام تأخر الشيخ، ووقفنا ننتظر قدومه، وبعد دقائق رأينا الشيخ قادماً من طرف غرفة الأساتذة، مسرعاً، يتدارك تأخره، ودخل وبدأ الكلام معتذراً عن تأخره فقال:

جاءنا ضيف إلى المدرسة، وبينما هو جالس معنا إذ وقع نظره على الأستاذ الشيخ عبد الرحمن زين العابدين ـ رحمه الله تعالى ـ وحوله بعض الطلبة من المرحلة الإعدادية، فسألَنا هذا الضيف: ماذا يفعل هذا الشيخ هنا؟ فقلنا له: يدرِّس النحو، فهزّ برأسه متألماً على الشيخ، منكراً علينا، وقال: أليس حراماً أن يكون هذا الشيخ مدرساً عندكم: ضرب زيد عمراً، وهو إنسان يأتي بالعجائب!! فقلنا له: نعم، نحن نعرفه بالمهارة في عدة أمور، لكنْ أيْشٍ من العجائب يأتي به؟.

فقال: هذا إنسان يثقب الإبرة طولانياً!! وبدأ الشيخ درسه الفقهيّ.

ومضت أيام قليلة، وذهبتُ لزيارة أستاذنا الشيخ عبد الرحمن زين العابدين في

=

....

بيته بعد العشاء، كعادته اليومية في استقبال أي زائر: طالب من طلابه، مثلي ومثل زملائي، أو زميل له من أقرانه، أو أي إنسان يسمع بعبقرية الشيخ، يريد أن يتشرف بالتعرف عليه.

ذهبت لزيارته رحمه الله، وإذ بالشيخ يَفْجَؤُني بالقصة من أولها، قال لي:

قرأت في مجلة خبراً، فيه مساجلة بين رجلين: أمريكي وألماني، يقول أحدهما ـ ونسيته أنا ـ: إنه يثقب الإبرة طولانياً، فردّ عليه الثاني بقوله: وأنا أثقب الريشة التي تثقب بها الإبرة.

قال الشيخ: فقرأت هذا الخبر على ضيف كان عندي، فقلت له: لو كنتُ ثالثَهما لثقبت إبرة الرجل الثاني، فأخذتِ الرجلَ دهشةٌ بالغة، ولم يتمالك نفسه أن قال لي: أستاذ، ماذا تقول؟! فقلت له ـ والكلام كله للشيخ رحمه الله ـ: أما تصدق؟! هاتِ يدك، وأدخلتُه على غرفة المعمل ـ هكذا قال الشيخ، يريد: الغرفة الخاصة التي فيها أدوات الصناعة والميكانيك والمخترعات، وكل شيء ـ، وجئت بإبرة، وصنعت الريشة الفولاذية لثقبها، ثم عملت ريشة ثانية وثقبت بها الريشة الأولى، ثم عملت ريشة ثالثة وثقبت بها الريشة الثانية!!.

فخرج الرجل على وجهه، لا يصدق ما رأى.

ـ ولا ريب أن هذا المشهد صار حديثَ الرجل في اليوم الثاني مع كل من يلقاه ـ.

قال الشيخ تغمده الله برحمته: وفي اليوم الثاني في مثل الوقت الأول، يُطرق الباب، ففتحته وإذْ بالرجل ومعه آخر، يبدأ كلامه باستغاثة ولهفة: يا أستاذ أرجوك أرجوك، إكراماً لله، إكراماً لله، فقلت له: خيراً، ماذا تريد؟ فقال: العملية التي أجريتَها البارحة تُعيدها الآن مرة ثانية، وبيني وبين هذا الرجل مراهنة على مئة ليرة سورية ـ وهي الآن تعادل مئة ألف ليرة سورية ـ.

قال الشيخ: فأدخلتُهما على غرفة المعمل ثانية، وأعدت العملية بمراحلها مرة ثانية.

هذا كلام الشيخ منذ اثنين وخمسين عاماً. وهو الإمام العبقري في المعقولات، =

يَشعْ له ذكْر، فقال يوماً لبعض من يأنس إليه: ألا ترى! كلُّ شيء يفتقر إلى الحظّ؟ عمل الشاشي قفلاً وزنه دانق، وطنَّت به البلاد، وعملت أنا قفلاً بمقدارِ ربعه، ما ذكرني أحد!! فقال له: إنما الذكر بالعلم لا بالأقفال!.

فرغب في العلم واشتغل به، وقد بلغ من عمره أربعين سنة، وجاء إلى شيخ من أهل مرو وعرَّفه رغبته، فيما رغب فيه، فلقَّنه أول كتاب المزني، وهو: هذا كتاب اختصرته، فرقىٰ إلى سطحه وكرر هذه الثلاثة ألفاظ من العِشاء إلى أنْ طلع الفجر، فحملتْه عينه فنام، ثم انتبه وقد نسيها، فضاق صدره، وقال: أيْشٍ أقول للشيخ! وخرج من بيته.

فقالت له امرأة من جيرانه: يا أبا بكر لقد أسهرتَنا البارحة في قولك: هذا كتاب اختصرته! فتلقَّنها منها[١]، وعاد إلى شيخه وأخبره بما كان منه، فقال له: لا يصدَّنك هذا عن الاشتغال، فإنك إذا لازمت الحفظ والاشتغال، صار لك عادة، فجَدَّ ولازم الاشتغال، وكان منه ما كان، فعاش ثمانين سنة، أربعين جاهلاً، وأربعين عالماً»[٢]. ثم نقل ياقوت عن السمعاني أنه عاش ٩٠ سنة وتوفي سنة ٤١٧.

واللغة العربية: نحوها، وصرفها، والصناعات بمختلفها، والرماية.

وكانت ولادته سنة ١٣٢٦ هـ ـ ووفاته سنة ١٤١١ رحمه الله تعالى، ولم يترك بعده خَلَفاً ناطقاً ولا صامتاً.

(١) تنظر قصة امرأة كانت تصحح للإمام أبي عبد الله الدامَغاني الحنفي خطأه في أول طلبه للعلم، في «الجواهر المضية» ٣: ٢٧١، وفيها طرافة.

(٢) ولعل الفاضل العَلْموي يشير إلى هذه الرواية بقوله في كتابه «المعيد» ص٥٩: «وقصة القفال واشتغاله في كبره بالعلم، مشهورة، معلومة مسطورة».

ومع ما في هذا الخبر من همة عالية من رجل بلغ الأربعين من العمر، وهو لا يعرف الفرق بين ضمير المتكلم من ضمير المخاطب: اختصرتَ اختصرتُ[(١)]، لعاميَّته ولعُجمته، فإنه صار إماماً يشار إليه، بهذه الهمة.

أقول: مع ما في الخبر من هذا المعنى، فإن فيه أيضاً ملاحظة وتنبيهاً إلى أدب كريم من ذاك الجليس الأنيس له، ومن ذاك الأستاذ المعلِّم له، فإنهما بـ(الكلمة الطيبة) النابعة من نفس متفائلة متطلِّعة، غيرِ مثبِّطة ولا متشائمة، نبَّهاه إلى ما فيه جميلُ الذكر وحسن العاقبة، ودفعا عنه اليأس، بملازمة الجِدّ والاشتغال بالعلم، فكان منه إمام وُصف بأنه «أحد مفاخر خراسان»، وبأنه «وحيد زمانه فقهاً وحفظاً وورعاً وزهداً»، وبأنه «تخرج به جماعة كثيرة صاروا أئمة في البلاد»، و«لم يكن في زمانه أفقه منه، ولا يكون بعده مثله، وكنا نقول: إنه مَلَك في صورة إنسان».

وهذه «الكلمة الطيبة» وأثرها هذا الأثر العظيم: أذكرتني بكلمات طيبة أخرى، وكان لها من الأثر ما هو أعظم من هذا بكثير.

فقد أسند الموفق المكي رحمه الله تعالى[(٢)] إلى أبي حنيفة أنه قال: «مررت يوماً على الشعبي وهو جالس، فدعاني وقال لي: إلى مَن تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السوق، وسميت له أستاذي، فقال: لم أعنِ الاختلاف إلى السوق، عَنَيت الاختلاف إلى العلماء، فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم، فقال لي: لا تَغْفُل، وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء،

---

(١) كما قاله ابن الصلاح في «طبقاته» ١ : ٤٩٨.

(٢) في «مناقب أبي حنيفة» ص٥٤.

فإني أرى فيك يقظة وحركة، قال: فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم، فنفعني الله تعالى بقوله».

وأسند البيهقي رحمه الله[١] إلى الربيع بن سليمان المرادي قال: «سمعت الشافعي يقول: خرجت من مكة فلزِمت هُذيلاً في البادية، أتعلّم كلامها وآخذ بلُغَتها، وكانت أفصح العرب، فأقمت معهم مدة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما أنْ رجعتُ إلى مكة جعلت أُنشد الأشعار، وأذكر أيام الناس، فمرَّ بي رجل من الزُّهريين فقال لي: يا أبا عبد الله، عزّ عليّ أن لا تكون في العلم والفقه هذه الفصاحة والبلاغة! قلت: مَن بقي ممن يُقصد؟ فقال: مالك بن أنس سيد المسلمين! قال: فوقع في قلبي، وعَمَدت إلى «الموطأ» فاستعرته من رجل بمكة وحفظته..» إلى آخر الخبر.

فانظر إلى هذا التلطُّف والأدب في الخطاب، وانظر إلى هذا الارتفاع بالهمة، إذْ كلٌّ من الإمام الشعبي، والرجل الزهري، تكلم بكلمات لا تزيد على السطر الواحد، جعلت منها إماماً للمسلمين يَنْعَم المسلمون ـ على مدى هذه القرون المتطاولة، وإلى يوم الدين ـ بعلمه وفقهه، وأقول: إن هذه الكلمات صادفت محلاً وهمة عالية، وأيضاً: إنها كانت كلمات ناصحات صادقات، خرجت من قلب صادق، فكان لها ذاك الأثر العظيم.

ورضي الله عن الإمام أبي حنيفة والشافعي وعن سائر علماء المسلمين، وجزى الله كل خير الإمام الشعبي، وذاك الرجل الزهريَّ على

---

(١) في «مناقب الشافعي» ١: ١٠٢.

ما أنطقهما الله به، فكان منه هذا الخير العظيم.

وهذا درس عابر ينبغي أن يستفيده كل مسلم: بأن يتكلم بخير وبما ينهض بالهمم، لا بما يثبِّط الهمم، ويميت العزائم.

وأعود إلى ما كنت فيه، فأقول: تقدمت[١] نماذج من حرص الأئمة على الفائدة وهم في ظروف الرخاء والشدة، وأزيد عليها ما يلي:

روى الترمذي[٢] حديث أنس رضي الله عنه: أنه صلى الله عليه وسلم خرج وهو يتكئ على أسامة بن زيد، وعليه ثوبٌ قِطْري[٣]، قد توشّح به، فصلّى بهم. رواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن محمد بن الفضل، ثم أعقبه الترمذي بهذه الحكاية العجيبة في بابها، قال:

«وقال عبد بن حميد: قال محمد بن الفضل: سألني يحيى بن معين عن هذا الحديث أولَ ما جلس إليّ، فقلت: حدثنا حماد بن سلمة، فقال ـ يحيى ـ: لو كان من كتابك، فقمت لأُخرِج كتابي، فقبض على ثوبي ثم قال: أَمْلِلْهُ عليّ، فإني أخاف أن لا ألقاك، فأمليته عليه، ثم أخرجت كتابي فقرأته عليه».

قال شارحه الإمام الفقيه الباجوري رحمه الله تعالى في شرح قوله «فإني أخاف أن لا ألقاك»: «أي: لأنه لا اعتماد على الحياة، فإن الوقت

---

(١) صفحة ٩٠ فما بعدها.

(٢) في كتابه «الشمائل المحمدية» (٥٩)، وظاهر ما في «فتح المغيث» ٣: ٢٨٨ أن الخبر في «المسند»، وليس فيه.

(٣) نسبة على خلاف القياس إلى دولة قَطَر، أو هي بُرُود يمنية الصناعة، من قطن.

سيف قاطع، وبرق لامع، وفيه: كمالُ التحريضِ على تحصيل العلم، والتنفيرِ من الأمل، سيما في الاستباق إلى الخيرات».

وروى الخطيب[1] خبرين، الأول: عن سفيان الثوري، والثاني: عن يحيى بن معين.

أما الخبر الأول: فقال محمد بن كثير العبدي: «قدم سفيان الثوري البصرة، فلما نظر إلى حماد بن سلمة قال له: حدِّثني حديث أبي العُشَراء، عن أبيه ـ «لو طعنتَ في فخذها لأجزأ عنك» ـ، فقال حماد: حدثني أبو العشراء، عن أبيه، الحديثَ، قال: فلما فرغ من الحديث أقبل عليه سفيان فسلّم عليه واعتنقه، فقال ـ حماد ـ: من أنتَ؟ قال: أنا سفيان، قال: ابن سعيد؟ قال: نعم، قال: الثوري؟ قال: نعم، قال: أبو عبد الله؟ قال: نعم، قال: فما منعك أن تسلِّم عليَّ ثم تسأل عن الحديث؟ قال: خشيت أن تموت قبل أن أسمع الحديث منك!!».

وأما الخبر الثاني: فقال أبو جعفر عبد الله بن محمد النُّفيلي: «قدم علينا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فسألني يحيى وهو يعانقني، قال: يا أبا جعفر، قرأتَ على معقل بن عبيد الله، عن عطاء: أدنى وقتِ الحائض يومٌ؟ فقال له أبو عبد الله ـ يعني: أحمد بن حنبل ـ: لو جلستَ! فقال ـ يحيى للنُّفيلي ـ: أكره أن تموت، أو تفارق الدنيا، قبل أن أسمعه!!».

وختم الحاكم أبو عبد الله كتابه «معرفة علوم الحديث» بهذا الخبر عن الإمام شعبة بن الحجاج: قال بقية بن الوليد: لقيني شعبة ببغداد فقال لي:

---

(١) في «الجامع» (١٦٠٢، ١٦٠٣).

لو لم أَلْقَكَ لَمُتُّ! معك كتاب بَحِير بن سعد؟ قال: قلت: لا، قال: إذا رجعتَ فاكتبه، واختِمه، ووجِّه به إليَّ». فانظر قوله: لو لم أَلْقَك لمتُّ.

وروى الخطيب[1] في ترجمة الإمام البخاري رحمه الله تعالى، عن ورّاقه محمد بن أبي حاتم - ومن شأن الوراق أنه يكون ملازماً سفراً وحضراً للشيخ -، قال: «إذا كنتُ معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ أحياناً، فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة، فيُورِي ناراً بيده، ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلِّم عليها، ثم يضع رأسه، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم، فقلت له: إنك تحمل على نفسك كلّ هذا ولا توقظني؟ قال: أنت شابّ فلا أحبّ أن أُفسد عليك نومك».

ثم روى في الصفحة التالية عن تلميذ البخاري وراوية «صحيحه»: محمد بن يوسف الفِرَبْري قال: «كنت عند محمد بن إسماعيل البخاري بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلةٍ ثماني عشْرةَ مرة».

وروى أبو نعيم[2] عن أخت الإمام الشافعي، قالت: «ربما قدّمنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة، أو أقل أو أكثر، المصباحَ إلى بين يدي الشافعي، وكان يستلقي ويتفكر، ثم ينادي: يا جارية هلُمي المصباح، فتقدمه ويكتب ما يكتب، ثم يقول: ارفعيه، فقيل للراوي: ما أراد بردّ المصباح؟ قال:

---

(١) في «تاريخه» ٢: ٣٢٢.

(٢) في «الحلية» ٩: ١٠٤.

(١) القدّاحة: حديدة الزند التي يقدح بها لتخرج النار

[قال]: الظلمة أجلى للقلب»[١].

بل قال أبو هلال العسكري[٢]: «حكى الربيع ـ بن سليمان ـ عن فاطمة بنت الشافعي رحمه الله تعالى أنها قالت: أسرجتُ لأبي في ليلةٍ سبعين مرة!! وكان الشافعي يقول: الظلمة أضوأ للقلب».

ومما ينبغي ملاحظته مع هذه الأخبار: أن عندهم واجباً آخر عليهم، هو صلاة قيام الليل، فإن لها قسطاً وافراً من ليلهم، فمهما كان الليل طويلاً فإنه قصير، ومع ذلك يقوم هذا الإمام لتحصيل فائدة، أو تسجيل خاطرة، هذه المرات الكثيرة، في هذا القدر القصير من الليل، فالفائدة أغلى من الراحة.

ولسان حال كل واحد من هؤلاء الأئمة ـ وغيرهم ـ ينشد ويقول، ويفخر على الدنيا وأهلها بما ينشد وبما يقول:

بَصُرتُ بالراحة الكبرى فلم أرَهـا ... تُنال إلا على جسر من التعب[٣]

---

(١) في «الحلية» ٩: ١٠٤، وأضفت [قال] بين معقوفين، وفاعلها هو الشافعي، ليتفق النص حينئذ مع نصّ العسكري الآتي. والله أعلم.

(٢) في «الحثّ على طلب العلم» ص٧٣.

(٣) البيت لأبي تمام، يخاطب به المعتصم بالله في قصيدته عن فتح عمّورية، التي مطلعها:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب ... في حدّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعب

وأصل إنشاده بصيغة المخاطب:

بصُرتَ بالراحة الكبرىٰ فلم تَرَها ... تُنال إلا على جسر من التعب

وروى أبو نعيم في ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوراق[1] أنه قال: «سمعت سلمة بن شبيب يقول: «كنا عند يزيد بن هارون، فازدحم الناسُ عليه، فوقع صبيٌّ تحت أقدام الناس، فقال يزيد: اتقوا الله! انظروا ما حالُ الصبيِّ! فنظرنا، فإذا هو حدقتاه قد حَرِجتْ وهو يقول: يا أبا خالد - وهي كنية يزيد بن هارون - زِدْنا!! فقال يزيد: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أعظمَ المصيبةَ بكم يا أصحاب الحديث، إذْ نزل بهذا الغلام ما نزل وهو يطلب الزيادة!»».

وأقول تعليقاً على هذا الخبر: كأن هذا الصبي كان يرضَع العلم مع رضاعه حليبَ أمه، حتى إذا ما بلغ هذا المبلغ من العمر، وصل إلى ما وصل إليه من تذوّق حلاوة العلم، حتى إنه ليطلب المزيد منه وهو في مهلكة!! أما إنه طلب العلم البارحة، وهو اليومَ عاشق للعلم مستميت في طلبه، فلا!.

---

(١) من «تاريخ أصبهان» ٢: ٢٢٩، وذكر السخاوي في «فتح المغيث» ٣: ٢٨١ أول «آداب طالب الحديث» كلمةَ يحيى بن أبي كثير «لا يستطاع العلم براحة الجسم»، وحديثَ «احرِصْ على ما ينفعك»، ثم قال: «ومن أبلغ ما يحكى عن السلف في ذلك: قول سلمةَ بنِ شَبيب»، وذكره.

وأزيد في البيان: أن كلمة «حَرِجتْ حدقتاه» هكذا جاءت في المصدر الأصلي، وجاءت في «فتح المغيث»: خرجت حدقتاه، بالخاء المعجمة، ومعنى حَرِجت - بالمهملة -: غارت فضاقت عليها منافذ البصر، كما في «أساس البلاغة»، ويؤيده أن الطفل لم يُذكر أنه مات، كما هو حال من تخرج حدقتاه، ويؤيد أنها بالمعجمة ذكر كلمة: حدقتاه، فلا يقال: حَرِجت حدقتاه، بل: خرجت حدقتاه، والله أعلم.

وقال الإمام أبو سعد السمعاني[١]: «وقد كتب جماعة من السلف رحمنا الله وإياهم، لعدم القرطاس، أو لإعوازه في الحال، على الجلود والألواح والخزف والرمل، والنعل والكفّ، وقد ذكرت هذه الأنواع بأسانيدها في كتاب «أدب الطلب»، ومن رامها فليرجع إليه.

«وأعجبُ ما مرّ بي في الكتابة على غير القرطاس ما أخبرني - وروى بسنده إلى عبيد بن عبد الواحد بن شريك - قال: حضرت مجلساً كثُر ازدحام الناس فيه، فأحسستُ في قفايَ بحِكّة وحركة، فلما أردت الانصراف إذا برجل يُجلسني فقلت: مالك؟ فقال: اجلسْ فإني قد كتبت المجلس في قفاك! فانتظِرني حتى أقابِل به!».

وما أظن الإمامَ السمعانيَّ يفوته في كتابه «أدب الطلب» الحكايةُ التي ذكرها الإمام الحاكم[٢]، وتمهيدُها وتقريبها كما يلي:

من مشاهير الأئمة المحدثين: الإمام محمد بن يحيى الذُّهلي، وهو من مشاهير شيوخ الإمام البخاري، وللذهلي ابن هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى الذهلي، وهو إمام ابن إمام[٣].

---

(١) في أواخر كتابه الطريف الظريف «أدب الإملاء والاستملاء» قبل الفقرة (٤٩٠)، وتمام اسم كتابه الآخر «طراز الذهب في أدب الطلب».

(٢) في «معرفة علوم الحديث» (١٣٩).

(٣) ترجمه الذهبي في «السير» ١٢: ٢٧٣ وأطال فيها وقال في آخرها ١٢: ٢٨٥: «خلَفه في مشيخة البلد ولده يحيى بن محمد بن يحيى الذهلي، الحافظ المجوِّد الشهير».

أما الحكاية: فقد روى الحاكم في «المعرفة» حديثاً فيه طول، وفي سنده ذكر أبي زكريا يحيى بن محمد هذا، يرويه عن الإمام يحيى بن يحيى التميمي النيسابوري راوية «الموطأ» عن الإمام مالك، ثم ساق الحاكم السند والمتن بتمامه، وقال في آخره: قال أبو زكريا: أحسَبني كتبتُ هذا الحديث على مفتاح الحانوت، لأنه لم يكن معي بياض» أي: ورقة أكتب عليها الحديث.

ونحو هذا في الحرص على اغتنام العلم: ما حكاه الذهبي[1] في ترجمة الإمام محمد بن سَلاَم - أو: سلاّم - البِيكَنْدي، شيخ الإمام البخاري: أنه انكسر قلمه في مجلس إملاء أحد الشيوخ، فأمر محمد بن سلام أن يُنادَى: قلم بدينار، فطارت إليه الأقلام. قال الذهبي: وكان ذا مالٍ. يعني: أنه اشترى القلم بدينار لكونه ذا مالٍ ويسار، وإلا فمن أين لطالب العلم أن يشتري قلماً بدينار! وأيضاً: فإن هذا يدل على حرصه على أن لا يفوته شيء من إملاء الشيخ، وإن لم يتيسَّر له الدينار لكتب على ثوبه أو على ظهر مَن أمامه كما فعل غيره.

ومثل هذا ما حكاه الزَّرْنوجي[2] عن عصام بن يوسف البلخي، المتوفى سنة ٢١٠، أو ٢١٥، من تلامذة تلامذة أبي حنيفة، قال: «اشترى عصام ابن يوسف قلماً بدينار، ليكتب ما سمعه في الحال» خشية فوات الفائدة.

---

(١) في «السير» ١٠: ٦٢٩.

(٢) في «تعليم المتعلم» ص٩١.

علو الهمة في طلب الحديث الواحد :

أما علوّ همتهم في الرحلة في طلب الحديث الواحد: فأمر أشهر من أن يُذكر، ولهم فيه عجائب، كأن الدنيا كانت عندهم بمنزلة الغرفة الواحدة، يتنقّل أحدهم في البلدان، كأنه يتنقل بين زوايا هذه الغرفة، وإن كتاب الإمام الخطيب البغدادي «الرحلة في طلب الحديث الواحد» معروف مشهور، مع ما فاته من أخبار كثيرة جداً.

وإذا كان الناس اليوم يقولون: إن العالَم صار كالقرية الصغيرة، بسبب ما وصلوا إليه من وسائل ومخترعات، فإن أولئك الرجال كانوا ينظرون هذه النظرة إلى العالَم، لكنْ بما منحهم الله إياه من همم عالية عليّة، كانت بين جَنَباتهم، بل كانت في خلايا أجسادهم، لا بهذه الوسائل المتطورة، ولا بتلك الوسائل البدائية!!.

ولم يكن أحدهم يرحل من أجل حديث نبوي شريف، تتوقُّف عليه الحجية في حكم شرعي من شريعة الله عز وجل، بل كان يرحل من أجل تحصيل إسنادِ كلمةٍ حكيمة من كلام السلف الصالح، هو يحفظها، لكنه يريد إسنادها، أو يرحل من أجل إسنادٍ آخرَ فيه (متابعةٌ) لإسناد هو عنده موجودٌ محفوظ، وغيرِ ذلك من فنون الإسناد.

ففي «الرحلة في طلب الحديث»[1] عن هارون بن المغيرة البَجَلي الرازي قال: قدم عليَّ ابنُ المبارك، فجاء إليَّ وهو على الرحل، فسألني

---

(١) للخطيب ص١٥٦.

عن قول الحسن البصري رضي الله عنه ـ وعنهم جميعاً ـ: «لا تشترِ مودة ألفِ رجل بعداوة رجل واحد»، فحدثته به، فقال: ما وضعتُ رحلي من مرو إلا لهذا الحديث.

والرازي: من الري، وهي طهران، وبينها وبين مرو بلدة الإمام عبد الله بن المبارك نحوٌ من ١٥٠٠ كيلو متراً، كما أخبرني بعض أهل العلم من تلك الديار! فاعجب لهذه الهمة القعساء التي تطاول السماء!!.

وأقول زيادة في البيان: إن الحسن البصري توفي سنة ١١٠، وولادة ابن المبارك سنة ١١٨، ووفاته سنة ١٨١، فبينهما في الرواية والإسناد غالباً رجل واحد الذي سمعها من الحسن، فمن أجل معرفة اسم هذا الرجل الواحد ـ رحل ابن المبارك هذه المسافة ١٥٠٠ كليو متراً ذهاباً، ومثلها إياباً.

وكان الإمام أبو جعفر أحمد بن حمدان الحِيري النيسابوري، المتوفَّىٰ سنة ٣١١، وقد جاوز السبعين من العمر، عمل مستخرَجاً على «صحيح مسلم»، ولما وصل إلى حديث مسلم[1] عن سويد بن سعيد، عن حفص ابن ميسرة، رحل من نيسابور إلى جُرْجان، ليسمعه من عمران بن موسى ابن مُجاشع، عن سويد، ليحقّق شرط الاستخراج[2].

---

(١) ١: ٣٧٥ (١٤).

(٢) الاستخراج: أن يأتي إمام من أئمة الحديث إلى كتاب من كتبه كصحيح البخاري مثلاً، فيروي كلَّ حديث من أحاديثه بإسنادٍ من عنده، إلى أن يصل إلى شيخ =

وكذلك ضاق عليه مخرج حديثٍ رواه مسلم[١] عن محمد بن عبّاد، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار «فلم يجده عند أحد عن ابن عباد، فقيل له: هو عند أبي يعلى الموصلي، عن ابن عباد، فرحل إليه قاصداً من نيسابور لسماع هذا الحديث»[٢].

ولفظ الذهبي في حكايته الرحلةَ إلى الموصل صريحٌ في أنه كان كبير السنِّ، يريد: أنه تحمّل مشقة السفر من نيسابور إلى الموصل، وبينهما من بُعْد الشُّقَّة الشيءُ الكثيرُ مع كبر السنّ، من أجل أمر فنيّ في علم الحديث لا يترتب عليه هنا تصحيح حديث ضعيف ـ مثلاً ـ، بل الحديث في «صحيح مسلم» لا وقفةَ فيه.

وكذلك كان سبب رحلته إلى جُرجان، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

وخبر آخر هو من نوادر أخبارهم في الرحلة، لكشف حقيقةِ إسنادِ

البخاري أو من فوقه، ثم يتفق معه في باقي السند، ولا ينبغي له أن يدخل على الحديث من طريق صاحب الكتاب، كالإمام البخاري مثلاً، بل: من شيخ البخاري فمن فوقه، وإذا كان للإمام المستخرِج إسنادان، أحدهما يُوصله إلى شيخ البخاري، والثاني يوصله إلى شيخ شيخه، فإنه مُلزَم بالسند الأول، إلا لضرورة، كأن يكون في السند الثاني فائدة إسنادية، أو متنية، فإنه يسوغ له حينئذٍ استخراج الحديث بالسند الثاني.

تنظر المسألة الثالثة من مسائل الحديث الصحيح في «تدريب الراوي».

(١) ٣: ١٣٥٩ (بعد ٧).

(٢) كما قاله الذهبي في «السير» ١٤: ٣٠٠، وهاتان الرحلتان لأبي جعفر مما لم يذكره الخطيب.

حديث، والحديث صحيح من طريق آخر، ويمكنني أن أحيل القارئ الكريم إلى عدد من كتب الحديث وعلومه ليقرأ الخبر فيها، لكني أحببت حكايته هنا، لأصلَ إلى التذكير بتطبيق سنة نبوية كريمة، وأختصر صدر القصة.

روى مسلم[(١)] عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مسلم يتوضأ فيحسنُ وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبلٌ عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة»، ثم زاده عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «ما منكم من أحد

---

(١) ١: ٢٠٩ (١٧)، وزاد أبو داود (١٧٢): أن يرفع نظره إلى السماء، ثم يقول: أشهد...، وزاد الترمذي (٥٥) ـ من حديث عقبة، عن عمر ـ: أن يقول في آخر الدعاء: «اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين»، وأعلّ الترمذي هذه الزيادة، لكنها تتقوى برواية الطبراني لها في «المعجم الأوسط» (٤٨٩٥)، وفي إسناده سعيد بن المرزبان البقال، وهو ضعيف مدلس.

وأطلق الحافظ عزوه في «التلخيص الحبير» ١: ١٠١ إلى البزار، فأوهم أنه في «مسنده»، وأن الهيثمي قصّر في «المجمع» ١: ٢٣٩ فلم يعزه إليه، في حين أن ابن دقيق العيد صرَّح في «شرح الإلمام» ٥: ١٧٠ ـ وتبعه ابن الملقن في «البدر المنير» ٤: ١٠٦ ـ أن البزار رواه في كتاب الطهارة من «السنن».

وممن روى الزيادة الثانية ـ اللهم اجعلني.. ـ: المستغفري في «الدعوات» من حديث البراء بن عازب، كما في «البدر المنير» ٤: ٩٤، وأن المستغفري قال: حسن غريب.

وعلى كل: فيسنّ الإتيان بهذه الزيادة بعد إتيانه بما في رواية مسلم.

يتوضأ فيُبْلغُ ـ أو: فيُسبغُ ـ الوضوءَ، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»(١).

ولهذا الحديث الصحيح إسناد آخر وقصة طويلة، خلاصتها: أن أحد الرواة ـ واسمه نصر بن حماد الوراق ـ روى هذا الحديثَ لزملائه وهُم جالسون على باب الإمام العظيم شعبة بن الحجاج، رضي الله عنهم جميعاً، عن إسرائيل بن يونس، عن جده أبي إسحاق السَّبيعي، عن عبد الله بن عطاء، عن عقبة بن عامر، وذكر الحديث.

فسمع شعبة من داخل الدار نصراً الوراق روى هذا الحديث بهذا السند، وكانت له قصة ورحلة شاقّة طويلة كشف بها ما فيه من تقصير، فلم يَملك نفسه إلا أن خرج من بيته ولطم نصراً ورجع إلى بيته قليلاً، ثم خرج ثانية فرأى نصراً يبكي، فقال: ما له يبكي؟ فقال له أحدُ الحاضرين ـ عبد الله بن إدريس ـ: لقد أسأتَ إليه! فقال: أما تسمع ما يحدث به: إسرائيل، عن جده..، أنا قلت لأبي إسحاق: أسَمِع عبد الله بنُ عطاء من عقبة؟ فقال: لا، وغضب، وكان حاضراً مع أبي إسحاق مسعرُ بن كِدام، فغضب لغضب أبي إسحاق، وقال لشعبة: أغضبتَ الشيخ، فقال شعبة لمسعر: ليُصَحِّحَنَّ لي هذا الحديثَ أو لأُسْقِطنّ حديثه.

فقال مسعر: عبد الله بن عطاء بمكة، فرحلت إليه لم أُرِد الحج، إنما

---

(١) وفي رواية ثانية عند مسلم: «أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

أردت الحديث، فلقيت عبد الله بن عطاء، فسألته، فقال: سعد بن إبراهيم حدثني به، وكان في المجلس الإمام مالك، فقال مالك لشعبة: سعد بن إبراهيم بالمدينة لم يحج، فدخلتُ المدينة، فلقيت سعد بن إبراهيم، فسألته، فقال: الحديث من عندكم، زياد بن مِخْراق حدثني به، فقال شعبة: أيّ شيء هذا الحديث!! بينا هو كوفي، صار مكياً، صار مدنياً، صار بصرياً.

قال شعبة: فدخلت البصرة، فلقيت زيادَ بن مِخْراق فسألته، فقال: ليس هذا من بابتك ـ أي: لا يناسبك هذا الحديث ولا يعجبك، ولا ترضاه، لأنه عن راو لا ترتضي روايته ـ فقال له شعبة: بلى، قال له زياد: لا تريده، قال: أريده، فقال: شهر بن حوشب حدثني به عن أبي ريحانة، عن عقبة. قال شعبة: فلما ذكر لي شهراً قلت: دمَّر عليّ هذا الحديث، لو صحّ لي هذا الحديث كان أحبّ إليّ من أهلي، ومن مالي، ومن الدنيا كلّها!.

قلت: الحديث صحيح بغير هذا الإسناد، كما قدمته من «صحيح مسلم»، وإنما ذكرت هذه القصة، لننشط نحن مع الدَّعة والراحة التامة، لأداء هذه السنة النبوية بعد كل وضوء، فقد تعب الإمام شعبة بن الحجاج كلَّ هذا التعب والنصَب، لكشف حقيقةِ إسناده، فلا ينبغي التقصير منا في العمل به[١].

---

(١) والقصة في مصادر كثيرة، أقدمُها مِن كتب علوم الحديث: «المحدث الفاصل» للرامهرمزي ص٣١٣.

ومما ينبغي الوقوف عنده في هذه القصة: قول مسعر لشعبة ـ وهما بالكوفة، أو بواسط ـ: عبد الله بن عطاء بمكة، أي: فارحل إليه، ثم قول مالك لشعبة وهما بمكة: سعد بن إبراهيم بالمدينة، أي: فارحل إليه، والرحلة لم تكن بطيارة ولا سيارة!! وكلامهم هذا واضح في أنه لا حساب عندهم في حياتهم العلمية، لا لتعب ولا لمشقة، فهذا لا ذكر له في حياة طالب العلمِ، ولا ملحظ له في (قاموس) طالب البحثِ والحقيقة، فقد كان في بواطن نفوسهم هِمم تفوق همم أصحاب السيارات والطيارات، إذْ ما أثَرُ وجودِ الطائرة عند صاحبها إذا لم يملك همة تنهض به للاستفادة منها! والدليلُ الناطق الصامت: ما نحن عليه اليوم!!.

وفي أصحاب سيدنا عبد الله بن عباس رجل مغمور يجهل اسمَه كثير من طلاب العلم، اسمه أَرْبِدة التميمي رضي الله عنه، قال[1]: ما سمعتُ ببلدة فيها علم إلا أتيتها. ونحوُ هذا قول مكحولِ الشامي، المولى المعتَق، وهو بعد أربِدَة بقليل، قال رحمه الله: طِفتُ الأرض كلَّها في طلب العلم!!.

علو الهمة في الرحلة وتقصّي الحقائق:

ومن روائع أخبارهم وعلو همتهم في الرحلة وتقصّي الحقائق، في خدمة السنة النبوية، ما أحكيه عن الإمام يحيى بن معين رضي الله عنه، البغدادي البلد، لكنه لكثرة تَرحاله لا ينبغي أن ينسب إلى بلد، فبلاد الإسلام وخاصةً حواضرَها، هي بلاده.

---

(١) كما في «العلل» للإمام أحمد (٧٢، ٤٢٦٣).

جاء يحيىٰ مرة إلى الإمام عفان بن مسلم الصفار ليسمعَ منه كتب حماد ابن سلمة، فقال له عفان[١]: «ما سمعتَها من أحد؟ قال يحيى: نعم، حدثني سبعةَ عشرَ نفساً عن حماد، فقال عفان: والله لا حدَّثتك، فقال يحيى: إنما هو درهم ـ أي: أجرة الطريق ـ وأنحدر إلى البصرة، وأسمع من التَّبوْذَكي ـ موسى بن إسماعيل ـ فقال له: شأنك، فانحدَر إلى البصرة، وجاء إلى موسى بن إسماعيل، فقال له موسى: لمْ تسمع هذه الكتب عن أحد؟ فقال: سمعتُها على الوجه ـ أي: بتمامها ـ من سبعة عشر نفساً، وأنت الثامن عشر، فقال: وماذا تصنع بهذا؟ فقال: إن حماد بن سلمة كان يخطىء، فأردت أن أميز خطأه من خطأ غيره، فإذا رأيت أصحابه قد اجتمعوا على شيء علمت أن الخطأ من حماد نفسه، وإذا اجتمعوا على شيء عنه، وقال واحد بخلافهم علمت أن الخطأ منه، لا من حماد، فأميز بين ما أخطأ هو بنفسه، وبين ما أُخطىء عليه».

علو الهمة يتغلّب على الفقر الشديد:

وما دمت في الحديث عن علوّ الهمة في طلب العلم، وذكرت من أخبارهم المشرقة ما ذكرتُ وأطلتُ، فإنه لا بدّ من ذكر معوِّق وقاطع عن الاستمرار في طلب العلم، لكن كانت هممهم السامية رضي الله عنهم تعلوا عليه، فتقطعه ولا يقطعها، هو الفقر، ورحم الله الفقيه المزجَّد اليمني الشافعي المتوفىٰ سنة ٩٣٥، القائل:

---

(١) كما في «المجروحين» لابن حبان ١: ٣٢.

قيل للفقر: أين أنت مقيم؟ قال لي: في عمائم الفقهاء
إن بـيني وبـينهم لإخـاءً وعزيزٌ عـليَّ قطع الإخـاء

وإن مفتاح باب الحديث عن الهمة المتغلِّبة على الفقر، هو حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال[١]: «إن الناس كانوا يقولون: أكثر أبو هريرة! ، وإني كنت ألزمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطني، حتى لا آكل الخَمير ـ الخبز الذي في عجينه خميرة ـ، ولا ألبس الحَبير ـ البرود الحِبَرة المزخرفة ـ، ولا يخدُمني فلان ولا فلانة، وكنت أُلصق بطني بالحصباء من الجوع، وإنْ كنتُ لأستقرِئُ الرجلَ الآية ـ أي: أطلب منه أن يقرئني آية كريمة ـ هي معي ـ أي: أنا حافظ لها ـ، كي ينقلب بي فيطعمَني».

ولقد كان الجوع يأخذ منه قواه كلَّها، حتى حكى ذلك عن نفسه[٢]، قال ابن سيرين: كنا عند أبي هريرة، وعليه ثوبان مُمَشَّقان ـ أي: مصبوغان بالأحمر ـ من كَتّان، فتمخَّط، فقال: بخٍ بخٍ، أبو هريرة يتمخّط في الكتان، لقد رأيتُني وإني لأَخِرُّ فيما بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حجرة عائشة، مغشيّاً عليّ، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي، ويُرَى أني مجنون، وما بي من جنون، ما بي إلا الجوع!» رضي الله عنه.

لكنه كان يتغلَّب على فقره بحبه للعلم، وصحبة النبي صلى الله عليه

(١) الذي رواه عنه البخاري في «صحيحه» (٣٧٠٨).

(٢) فيما رواه البخاري أيضاً (٧٣٢٤)

وسلم، بل لقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بحرصه على الاستفادة وتحصيل العلم، وذلك حين سأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم: من أسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال له صلى الله عليه وسلم: «لقد ظننتُ أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أولَ منك، لِمَا رأيت من حرصك على الحديث، أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»، أو: «نفسه»[١].

ومن أقوال الأئمة وأخبارهم في هذا الصدد: ما أسنده ابن عبد البر[٢] إلى الإمام مالك، قال: «إن هذا الأمر لن يُنال حتى يُذاق فيه طعم الفقر»، ثم ذَكَر مالك ما نزل بشيخه ربيعةَ الرأي الإمامِ العَلَم، من الفقر في طلب العلم، حتى باع خشب سقف بيته في طلب العلم، وحتى كان يأكل ما يُلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعُصارة التمر!!.

ثم أسند إلى الإمام شعبة بن الحجاج قوله: من طلب الحديث أفلس، إلى ما هنالك من أخبار عجيبة، مما يمرّ بطالب العلم، تنظر في كتاب شيخنا رحمه الله «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»، ثم يكرمه الله تعالى ببحبوحة العيش.

ولو كانوا يرون أن هذا الفقر والضيق، تَعب ونَصب، ومكروه وظلمة حياة، لصرفوا مواهبهم التي نبغوا بها في هذه العلوم، إلى تحصيل العلوم الدنيوية، ولَمَا حصل لهم وعليهم ما قاسَوْه من شدائد ومصاعب، لكنهم

---

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) في «الجامع» (٥٩٦).

كانوا يرون السعادة في ذاك الشقاء، والراحة في ذاك النصب، والنعيم في ساعات الحميم!.

كانوا يرون أنهم أغنياء بشَمَم نفوسهم، وأن غيرهم فقراء بذِلَّة نفوسهم، وقد عبّر عن هذا المعنىٰ الإمامُ العاقل الحكيم الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله تعالى بأربعة أبيات كتبها إلى والي فارس، يقول في آخرها:

الفقر في النفس لا في المال نعرفه ... ومثلُ ذاك: الغنى في النفس لا المال

وقال له أيضاً:

إن الذي شقَّ فمي ضامنٌ ... للرزق حتى يتوفّاني[1]

كانوا يقتلون جبروت الفقر والجوع بالصبر عليهما، وبالثقة بالله، ويتقلبون في نعيم العلم والمعرفة، ولذة العبادة والقرب، فلا يَعرف ألم الضائقة سبيلاً إلى نفوسهم الأبيّة، وأرواحهم الأوّابة إلى ربها سبحانه، فكان الله جل جلاله لهم بالمعونة والإنقاذ، يسخِّر لهم قلوب عباده الغافلين عنهم.

من أخبار عون الله تعالى لهم:

ومن أخبارهم في ذلك: ما رواه الحافظ ابن عساكر رحمه الله في «تاريخه»[2] في ترجمة الإمام الحافظ الثَّبْت أبي العباس الحسن بن سفيان

---

(١) وتنظر قصة ذلك في «صفحات من صبر العلماء» ص١٦٦.

(٢) ١٣ : ١٠٣ ـ ١٠٥، ومن طريقه ابن العديم في «بغية الطلب في تاريخ حلب» =

النَّسَوي، من بلدة نسا، من بلاد خراسان، المتوفى سنة ٣٠٣ عن تسعين سنة، أو أزيد من تسعين، وكانت له رحلات طويلة.

أسند ابن عساكر إلى أبي الحسن الصفار قوله: كنا عند الشيخ الإمام الزاهد الحسن بن سفيان النَّسَوي وقد اجتمع لديه طائفة من أهل الفضل، ارتحلوا إليه من أطباق الأرض والبلاد البعيدة، مختلفين إلى مجلسه لاقتباس العلم وكِتْبة الحديث.

فخرج يوماً إلى مجلسه الذي كان يُملي فيه الحديثَ وقال: اسمعوا ما أقول لكم قبل أن نشرع في الإملاء.

قد علمنا أنكم طائفة من أبناء النِّعم وأهل الفضل، هجرتم أوطانكم، وفارقتم دياركم وأصحابكم في طلبِ العلم، واستفادةِ الحديث، فلا يخطُرَنَّ ببالكم أنكم قضيتم بهذا التجشُّم للعلم حقاً، وأدّيتم بما تحملتم من الكُلَف والمشاقّ من فروضه فرضاً، فإني أحدثكم ببعض ما تحمَّلته في طلب العلم من المشقة والجهد، وما كشف الله سبحانه وتعالى عني وعن أصحابي ببركة العلم وصفوة العقيدة من الضيق والضَّنْك.

اعلموا أني كنت في عُنفوان شبابي، ارتحلت من وطني لطلب العلم واستملاء الحديث، فاتفق حصولي بأقصى المغرب، وحلولي بمصر، في تسعة نفر من أصحابي، طلبة للعلم وسامعي الحديث، وكنا نختلِف إلى شيخ كان أرفعَ أهل عصره في العلم منزلةً، وأدراهم للحديث، وأعلاهم إسناداً، وأصحهم روايةً.

٥: ٢٣٧٠، وصوَّبتُ منه أربع كلمات تحرفت في طبعة «تاريخ ابن عساكر».

وكان يُملي علينا كل يوم مقداراً يسيراً من الحديث، حتى طالت المدة، وخفَّت النفقة، ودفعتنا الضرورة إلى بيع ما صَحِبْنا من ثوبٍ وخرقة، إلى أن لم يبق لنا ما كنا نرجوا حصول قوتِ يومٍ منه، وطوينا ثلاثة أيام بلياليها جوعاً وسوء حال، ولم يذق أحد منا فيها شيئاً، وأصبحنا بكرةَ اليوم الرابع، بحيثُ لا حَرَاكَ بأحد من جُملتنا من الجوع، وضَعْف الأطراف.

وأحوجتِ الضرورة إلى كشف قناع الحِشمة، وبذل الوجه للسؤال، فلم تسمح أنفسنا بذلك، ولم تَطِب قلوبنا به، وأَنِف كل واحد منا عن ذلك، والضرورةُ تُحوجِ إلى السؤال على كل حال.

فوقع اختيار الجماعة على كِتْبَة رقاع بأسامي كل واحد منا، وإرسالها قرعةً، فمن ارتفع اسمه عن الرقاع كان هو القائم بالسؤال، واستماحة القوت لنفسه ولجميع أصحابه.

فارتفعت الرقعة التي اشتملت على اسمي، فتحيرتُ ودُهشت، ولم تسامحني نفسي بالمسألة واحتمال المذلة، فعدلتُ إلى زاوية من المسجد أصلي ركعتين طويلتين، قد اقترن الاعتقاد فيهما بالإخلاص، أدعو الله سبحانه بأسمائه العظام، وكلماته الرفيعة، لكشف الضرِّ وسياقة الفرج.

فلم أفرغ بعدُ عن إتمام الصلاة حتى دخل المسجدَ شابٌ حسن الوجه، نظيف الثوب، طيب الرائحة، يتبعه خادم في يده منديل، فقال: مَن منكم الحسن بن سفيان؟ فرفعت رأسي من السجدة، فقلت: أنا الحسن بن سفيان فما الحاجة؟ فقال: إن الأمير طولون صاحبي يُقرئكم السلام والتحية، ويعتذر إليكم في الغفلة عن تفقد أحوالكم، والتقصير

الواقع في رعاية حقوقكم، وقد بعث بما يكفي نفقةَ الوقت، وهو زائركم غداً بنفسه، ويعتذرُ بلفظه إليكم، ووضع بين يدي كل واحد منا صرَّة فيها مئة دينار.

فتعجبنا من ذلك، وقلنا للشاب: ما القصةُ في هذا؟ فقال: أنا أحدُ خَدَم الأمير طولون المختصين به، والمتصلين بأقربائه، وخواص أصحابه، دخلت عليه بكرةَ يومي هذا مسلِّماً في جملة أصحابي، فقال لي وللقوم: أنا أحبُّ أن أخلوَ يومي هذا، فانصرفوا أنتم إلى منازلكم.

فانصرفت أنا والقوم، فلما عدت إلى منزلي لم يَتَّسِق قعودي حتى أتاني رسول الأمير مسرعاً مستعجلاً، يطلبني حثيثاً، فأجبته مسرعاً، فوجدته منفرداً في بيتٍ، واضعاً يمينه على خاصرته، لوجع مُمِضّ اعتراه في داخل جسده، فقال لي: أتعرفُ الحسن بن سفيان وأصحابه؟ فقلت: لا، فقال: اقصِدْ المحَلّة الفلانية، والمسجد الفلاني، واحمِل هذه الصُّرَر، وسلِّمها في الحين إليه، وإلى أصحابه، فإنهم منذ ثلاثة أيام جياعٌ بحالة صعبة، ومهِّد عذري لديهم، وعرِّفهم أني صبيحةَ الغد زائرهم، ومعتذر شفاهاً إليهم.

فقال الشاب: سألته عن السبب الذي دعاه إلى هذا؟ فقال: دخلت هذا البيت منفرداً عَلّي أن أستريح ساعة، فلما هدأتْ عيني، رأيت في المنام فارساً في الهواء متمكناً تمكّن من يمشي على بساط الأرض، وبيده رمح، فقضيتُ العجب من ذلك، وكنت أنظر إليه متعجباً حتى نزل إلى باب هذا البيت، ووضع سافِلة رمحه على خاصرتي، فقال: قم فأدرك الحسن بن سفيان وأصحابه، قم وأدركهم، قم وأدركهم، قم وأدركهم، فإنهم منذ

ثلاثةٍ جياع في المسجد الفلاني، فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا رضوان صاحب الجنة، ومنذ أصاب سافلة رمحه خاصرتي أصابني وجع شديد لا حراك بي له، فعجِّل إيصال هذا المال ليزول هذا الوجع عني.

فقال الحسن: فتعجبنا من ذلك، وشكرنا الله سبحانه وتعالى، وأصلحنا أمورنا، ولم تَطِب أنفسُنا بالمُقام، حتى لا يزورنا الأمير، ولا يطَّلع الناس على أسرارنا، فيكون ذلك سببُ ارتفاعِ اسمٍ، وانبساطِ جاهٍ، ويتصلَ ذلك بنوعٍ من الرياء والسمعة[١]، وخرجنا تلك الليلة من مصر، وأصبح كل واحد منا واحدَ عصرِه، وفريدَ دهره في العلم والفضل.

فلما أصبح الأمير طولون أتى المسجد لزيارتنا، وطلبنا، وأحسّ بخروجنا، أمر بابتياع تلك المحلة بأسرها، ووَقَفَها على ذلك المسجد، وعلى من ينزل به من الغرباء، وأهل الفضل، وطلبة العلم، نفقةً لهم، حتى لا تختلَّ أمورهم ولا يصيبَهم من الخلل ما أصابنا، وذلك كلُّه بقوة الدين، وصفوة الاعتقاد، والله سبحانه ولي التوفيق.

كان في الأصل في المواضع كلها: طولون، والصواب: ابن طولون[٢].

---

(١) انظر محاسبتهم لأنفسهم ومراقبتهم لأحوالهم، مع ما نزل بهم! رضي الله عنهم وأرضاهم.

(٢) انتهى النقل عن ابن عساكر وابن العديم، وقد نقلها بقريب من اللفظ والتفصيل الذهبي في «السير» ١٤: ١٦١، وعنده «طولون» أيضاً، لا: ابن طولون، وقال: «رواها الحافظ عبد الغني ـ المقدسي ـ في الرابع من الحكايات، والله أعلم بصحتها، ولم يلِ طولون مصر، وأما ابنه أحمد بن طولون فيصغر عن الحكاية، ولا أعرف ناقلها، وذلك ممكن».

=

ومن أخبارهم أيضاً: ما أسنده التاج السبكي[(١)] إلى أبي العباس البكري ـ من ولد الصديق الأكبر رضي الله عنه ـ قال: جمعتِ الرحلة بين محمد بن جرير الطبري، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الرُّوياني، بمصر، فأرمَلوا ـ نفِد زادهم ـ ولم يبق عندهم ما يَقُوتهم ـ يمسك أبدانهم من شدة الجوع ـ، وأضرّ بهم الجوع.

فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يَستهموا ويضربوا القُرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على ابن خزيمة، فقال لأصحابه: أَمهِلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخِيَرة ـ الاستخارة ـ، فاندفع في الصلاة، فإذا هم بالشموع، وخَصِيٌّ من قِبَل والي مصر يدقّ الباب، ففتحوا الباب، فنزل

قلت: قد صوّب ابن عساكر ـ وهو إمام حافظ ـ أنه: ابن طولون، ووافقه ابن العديم، وهو حافظ أيضاً.

أما قوله عن أحمد بن طولون: يصغر عن الحكاية، فبيانه: أنه ولد سنة ٢١٤، وتولى الحكم سنة ٢٥٤، وتوفي سنة ٢٧٠، والحسن بن سفيان صاحب القصة توفي سنة ٣٠٣ عن تسعين سنة، فيكون عمره لما تولى ابن طولون الحكم ٤١ سنة، والمحدثون في هذه السنّ يكونون قد انتهت رحلاتهم وجلسوا للرواية والأداء والعطاء، وقبل بلوغ الحسن بن سفيان تلك السنّ لم يكن ابن طولون أميراً ليذكر وليرى هذه الرؤيا، ومع ذلك فقد ترك الذهبي رحمه الله مجالاً لتصحيح الخبر فقال: وذلك ممكن.

(١) في «طبقاته» ٢: ٢٥١.

عن دابته، فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو هذا، فأخرج صرّة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه، ثم سأل عن محمد بن جرير، وعن محمد بن خزيمة، وعن محمد بن هارون، ويعطي كل واحد منهم مثل ما أعطى الأول، ثم قال لهم:

إن الأمير كان قائلاً بالأمس ـ نومة القيلولة وسط النهار ـ فرأى في المنام خيّالاً فقال له: إن المحامد ـ أي: المحمدين الأربعة ـ طَوَوْا كَشْحهم ـ جَنَباتهم وبطونهم ـ جياعاً، فأنفذَ إليكم هذه الصِّرار، وأُقسم عليكم إذا نَفِدت فابعثوا إليّ أحدكم.

والفقر لم يكن عائقاً وقاطعاً عن العلم إلا لأصحاب النفوس الضعيفة التي لا تثبت للمحنة ولا للامتحان، ومثل هذا العارض مما ينبغي أن ينبِّه المؤدِّبون تلامذتهم إليه، حتى إذا امتُحِنوا به صبروا، وعلموا أنها أيام وتنقضي، وأن لهؤلاء المبتدئين سلفاً صالحاً، امتُحنوا، فصبَروا، فظفِروا.

وقد روى الخطيب[1] عن الإمام الكبير إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى أنه قال: «من ابتغى شيئاً من العلم يبتغي به وجه الله، آتاه الله منه بما يكفيه»[2].

---

(١) في «الجامع» (٧١).

(٢) أي: آتاه الله من فضله ورزقه ما يكفيه، وكأنه ضمّن فعل «آتاه» معنى: أكرمه، أي: أكرمه الله من فضله بما يكفيه. ودليل ذلك: أن الخطيب روى هذا الخبر عقب روايته الحديث المرفوع من رواية زياد بن الحارث الصُّدائي: «من طلب العلم تكفل الله برزقه»، وهو ضعيف جداً.

وأقول للأخ القارئ الكريم بعد هذه الأخبار وما شابهها: قف وتأمل حقّ التأمل: هل هذه الأخبار ـ وغيرها كثير ـ هي من عالم الواقع، أو هي من نسج الخيال وأحلام اليقظة؟! إنها من عالم الواقع، إنها أخبار أناس اختارهم الله عز وجل لحفظ دينه، وحمل شريعته ثم أدائها إلينا، بهم أيّد الله دينه، وأيّدهم بدينه، وعلينا أن ندرك الصلة بين هؤلاء الرجال وبين وعد الله تعالى بحفظ كتابه ـ وشريعته ـ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ الحجر: ٩، فبهؤلاء حفظ الله دينه، وأذاقهم في الدنيا شيئاً من جزائه لهم في الآخرة، وبهذا النعيم تحمَّلوا وصبروا، ولولا أنهم أدركوا حقّ الله عليهم، وأدركوا ـ حقاً وحقيقةً عِظَم موقعهم وشرفَه عند الله، ووجدوا لهذا التعب والنصب حلاوة تفوق وتُنْسي مرارة ارتكاب الشدائد والمخاطر التي كانت تمرّ بهم، لولا هذا كلُّه: لَمَا فعلوا ما فعلوه، وتحملوا ما تحملوه! فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجزاهم الله أعظم الجزاء الخيِّر على ما خدموا به دين الإسلام.

وهم أحقّ وأولى من كل الوجوه والاعتبارات بقول أبي العلاء:

جمالَ ذي الأرض كانوا في الحياة، وهم
بعد الممات جمالُ الكُتْب والسِّيَر

بل هم هم أصحاب هذا التشبيه والمديح، لا غيرهم.

والحديث طويل وطويل، وذو شجون وفنون، كما أن الحديث عن علوّ همة أئمتنا أطول وأحلى.

* * * * *